

موجز تاريخ الحروب الصليبية



مكتبة الايمان بالمنصورة
امام جامعة الأزهر

علاء الدين
نجي وشبه



مؤرخ تاريخ الحروب الفلسطينية

تأليف

مصطفى وهبه

مكتبة الأديب
الطبعة الأولى: ١٩٨٥
٧٥٧٨٢ / ٥

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤١٨هـ - ١٩٩٧م

مكتبة الإيمان للنشر والتوزيع

المنصورة - أمام جامعة الأزهر

تليفون: ٣٥٧٨٨٢

مقدمة

تعتبر الحروب الصليبية علامة من أبرز العلامات وحدثاً من أكبر الحوادث فى التاريخ الإسلامى كله، بل لا نبالع إذا قلنا من أكبر حوادث التاريخ العالمى .

فالذى فكر فى الحروب الصليبية «أو الحملات الصليبية» والذى قام بها هو الغرب المسيحى بتحريض وتوجيه من البابوية «السلطة الكبرى فى أوروبا فى ذلك الوقت»، بغرض الإستيلاء على المقدسات المسيحية فى فلسطين وبخاصة مدينة القدس - التى تتعرض اليوم فى ظل الإحتلال الإسرائيلى لنفس ما تعرضت له منذ تسعة قرون .

بدأت الحروب الصليبية فى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى/ أواخر القرن الخامس الهجرى، وإستمرت حتى أواخر القرن الثالث عشر الميلادى/ أواخر القرن السابع الهجرى . دون أن ندخل فى إعتبارنا زمن تصفية الوجود الصليبي «أو فلول الصليبين» فى جزائر البحر المتوسط مثل قبرص ورودس .

وقد جاءت البداية الأولى للتفكير فى الحروب الصليبية من جانب أوروبا، متواكبة مع سقوط دولة المسلمين فى الأندلس، ومع إستعادة النورمان جزيرة صقلية وغيرها من جزائر البحر المتوسط من أبدي المسلمين، فى وقت كانت فيه الدولة العربية الإسلامية الممثلة سواء فى الخلافة العباسية فى بغداد أو الخلافة الفاطمية فى القاهرة، أو سلاجقة الشام وآسيا الصغرى، تشهد ضعفاً لم تشهده من قبل .

كما تواكبت تلك البداية مع زيادة سكان الغرب الأوروبى خلال القرنين العاشر والحادى عشر الميلادين زيادة وصلت إلى الضعف مما جعل هناك إحتياجاً إلى أراضى جديدة ذات موارد إقتصادية جديدة يتوسعون فيها .

وكانت تلك الظروف مناسبة تماماً ليتنهزها بابا الفاتيكان آنذاك «أوربان الثانى» ورجال الدين المسيحى ويدعوا إلى القيام بحرب صليبية «أو مسيحية» شاملة على بلاد المشرق العربى الإسلامى، وخصوصاً الشام وفلسطين للسيطرة على المقدسات

المسيحية والأرضى التى عاش ودعا فيها المسيح ابن مريم.

ووجدت دعوة ذلك البابا إستجابة كبيرة من الأوربيين خاصة بعد ما شاع فى ذلك الحين من أن الأتراك السلاجقة يعترضون قوافل الحجاج المسيحيين القادمين من الغرب ويعتدون عليها، كما يعتقدون على المقدسات المسيحية.

هكذا كانت بداية التفكير الذى أدى إلى الحروب الصليبية التى بلغت حملاتها أكثر من خمسة عشر حملة «منها ثمانى كبيرة» ودامت نحو مائتى سنة أو يزيد وفى كل مرة كان خط سيرها يتجاوز الألفى ومائتى ميل وإشتركت فيها كل بلاد أوروبا المسيحية من إنجلترا واسكتلندا فى أقصى الغرب حتى بلاد المجر والرومان، وشملت ساحة معاركها كل بلاد الأناضول «أو آسيا الصغرى» والشام ومصر، بل وليبيا وتونس أحياناً.

وفى أثناء الفترة الطويلة التى إستمرت فيها الحروب الصليبية دخلت عوامل وأهداف أخرى لا علاقة لها بأى مقدسات أو دعاوى دينية مزعومة، منها - بل على رأسها - طمع الكثيرين من نبلاء أوروبا وأمرائها فى إنشاء ممالك لهم فى بلاد المسلمين تمكنهم من زيادة ثرواتهم الخاصة ونفوذهم.

سنة ١٠٩٩م/ ٤٩٢هـ ، وعند وصول الحملة الصليبية الأولى إلى الشام كانت دولة السلاجقة «أو الجناح العسكرى للخلافة العباسية» ، بل والخلافة العباسية ذاتها تعاني مرض الشيخوخة و أوهن من أن تصد عدواناً يقع عليها . وكانت بلاد المسلمين تخلو من دولة موحدة تجمع المسلمين وتوحدهم لمواجهة الخطر الصليبي الزاحف .

وهذا ما جعل الغرب الأوربي ينجح بعد حملتيه الصليبيتين الأولى والثانية فى الإستيلاء على بيت المقدس وإنشاء مملكة صليبية به بالإضافة إلى ثلاث إمارات مسيحية، إثنين منها فى الشام هما: إمارة أنطاكية وإمارة طرابلس، والثالثة فى شمال العراق على الفرات هى إمارة الرها.

ثم إستيقظ العالم الإسلامى من سباته العميق، وغيوبته، وبدأت حركة نهوض وجهد توحيدى واسع المدى، على يد «فهم الدين إلغازى» صاحب ماردين

من بلاد الجزيرة «الراقة شمال العراق إلى الشرق من نهر الفرات»، وعماد الدين زنكى صاحب الموصل، ثم إتسع نطاق تلك الحركة الناهضة ليشمل بلاد الشام، وبلغ النهوض أو الإفاقة من الغيوبة أقصى مدى فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر الميلادى/ السادس الهجرى بعد إنضمام مصر إليها على يد نور الدين محمود ابن عماد الدين زنكى، وانتقال قيادة الحركة إلى مصر بعد قيام الدولة الأيوبية على يد مؤسسها صلاح الدين الأيوبي، الذى حقق إنتصاراً حاسماً على الصليبيين فى حطين سنة ١١٨٧م/ ٥٨٣ هـ ، وإستعاد بيت المقدس من أيدي الصليبيين.

وكانت حطين هى بداية النهاية للصليبيين وحملاتهم على الشرق الإسلامى، على النحو الذى سنراه تفصيلاً.

سنة ١٩٢٠ (أى القرن العشرين) وقف «غورو» قائد الجيش الفرنسى الذى غزا سوريا ليفرض عليها قبول الإنتداب الفرنسى - وهو الإصطلاح المذهب للإحتلال - أمام قبر صلاح الدين الأيوبي فى دمشق وقال: «هاتحن قد عدنا يا صلاح الدين». قاصداً بذلك أن الصليبيين الذين هزمهم صلاح الدين فى حطين فى القرن الثانى عشر الميلادى، قد عادوا مرة أخرى فى القرن العشرين.

هذا ما حدث سنة ١٩٢٠ بعد أكثر من ٧٠٠ سنة مضت على تصفية وجودهم فى المشرق العربى الإسلامى.

ونفس هذا السيناريو يتكرر اليوم.. فبعد ضياع فلسطين سنة ١٩٤٨.. توشك القدس أن تضيع اليوم، بعدما أعلنتها إسرائيل عاصمة أبدية لها، وما تقوم به إسرائيل يومياً من إجراءات بالقدس لتغيير ملامحها وتاريخها العربى الإسلامى تحت سمع وبصر كل حكام العرب والمسلمين. فهل نقول ما أشبه اليوم بالبارحة... وهل ما نحن فيه من سبات عميق شبيه بما كان فيه العباسيون والفاطميون فى أخريات أيام دولتيهما؟! وهل هناك إتصال بين ما حدث منذ تسعة قرون «بداية الحملات الصليبية» وبين ما يحدث الآن فى نهاية القرن العشرين؟ وهل السبعة قرون - منذ نهاية الحملات لم تكن إلا فترة هدنة بينهم وبيننا؟!.. وهل ما يدعونه من سلام ووثام ليس إلا خيالات وأوهام؟!

هذا ما سوف تكشفه لنا حقائق التاريخ عندما نستعرضها من خلال هذا الموجز

لتاريخ الحروب الصليبية.

يبقى أن نشير إلى أننا سوف نلتفت بعد أن نستعرض التاريخ إلى حقيقة واضحة وضوح الشمس، وهي أن السكين الصليبية مضت في الزبد العربي بسهولة ويُسر بسبب الفِرقة السياسية والتشردم.

وخلال الصراع الطويل على مدى قرنين من الزمان كانت المعادلة الواضحة دون أي لبس أو غموض هي كالتالي:

وحدة وعمل مشترك في الجانب العربي الإسلامي تدهور = وهزيمة في الجانب الصليبي أو المعادي.

والعكس دائماً صحيح تماماً.

فهل سنفيق بعد أن نعي درس التاريخ، أم سنظل بسباتنا وغفلتنا قانعين؟...

مصطفى وهب

المنصورة في ٢٧/٨/١٩٩٧

الفصل الأول

نظرة شاملة على حال العالم قبيل الحروب الصليبية

(١) الغرب الأوربي قبيل الحروب الصليبية

حتى القرن الحادى عشر الميلادى/ الخامس الهجرى، وقبل بداية الحروب أو الحملات الصليبية على المشرق العربى، لم تكن أوربا كما نعرفها اليوم، دولة مستقرة وشعباً متميزة، بل كانت مجرد منطقة إقطاعية متخلفة بالقياس إلى ما وصلت إليه - حينذاك - حضارة العالم البيزنطى «وريثة الإمبراطورية الرومانية وإمبراطورية اليونان القديمة»، وحضارة العالم العربى الإسلامى، من قوة وإزدهار.

وقد كان القرن الحادى عشر الميلادى بالنسبة للغرب الأوربي بداية فترة امتدت ثلاثة قرون تمثل مرحلة الإبداع والنهوض فى تاريخ العصور الوسطى وخلال تلك الفترة كانت المؤسسات السياسية والاقتصادية والدينية والاجتماعية التى تشكلت منذ القرن السادس الميلادى قد رَسخت بحيث كانت الأساس الذى قامت عليه حضارة أوربا فى العصور الوسطى.

لقد شهد القرن الحادى عشر ميلاد قادة كبار ورعما بارزين «من جهة نظر الغرب طبعاً» مثل: وليم الفاتح ملك إنجلترا، والإمبراطور هنرى الثالث وإبته هنرى الرابع، وروجر الأول النورمانى حاكم صقلية، وروبرت جويسكارد وإبته يوهيموند أبرز رعماء الحملة الصليبية الأولى، والفونسو السادس ملك قشتالة. وقد كان أولئك جميعاً من العسكريين الذين كانوا يبحثون عن السلطة والمجد، يمثلون من وجهة نظر الشرقيين «أو العرب المسلمين» الغدر والجشع والتعصب.

وعاش فى القرن الحادى عشر الميلادى معظم البابوات أو رجال الكنيسة الإصلاحيين «أو الذين لهم وجهة نظر سياسية وطموح سلطوى» ومن أبرزهم كان البابا جريجورى السابع «الشیطان المقدس» الذى رغب فى تحقيق السمو البابوى وسيطرة البابوية على مجريات الحكم والسياسة فى أوروبا آنذاك، وخليفته أوربان الثانى صاحب أول دعوة إلى الحملات الصليبية.

على جانب آخر كان هناك فى أوربا القرن الحادى عشر الفلاحون المتعبون الذين كانوا يزيلون الغابات ويزرعون أرضها بالمحاصيل التى تحتاجها أوروبا. وكان

هناك بحارة الموانى الأوروبية «مثل جنوا والبندقية وبيزا» الذين نجحوا فى طرد المسلمين من شواطئ أوروبا، وكانت تستولى عليهم روح الحيوية الدافقة والحماسة الجسورة التى كانت ملمحاً من ملامح أوروبا حينئذ.

فى ذلك الوقت كان الطابع الريفى أو المظهر الإقطاعى هو الغالب على أوروبا. وكان الأوروبيون يعيشون تحت رحمة الطبيعة إلى حد بعيد، إذ كانت الأرض المزروعة لا تزال ضئيلة المساحة بالقياس إلى مناطق البرارى والغابات والأراضى البور. وكانت كل هذه المساحات مرتما للحيوانات المفترسة كالذئاب والذئب وغيرها. ولم يكن غريباً أن تدخل هذه الحيوانات إلى القرى أو تتجول فى الحقول المزروعة. وكان الفلاح الأوروبى يعيش فى كوخ صغير حياة أدنى من حياة الحيوان الذى يحمل فى الحقل. وكان طعامه فقيراً وبسيطاً من إنتاج حقله، وملابسه كان يصنعها من جلود حيواناته وصوف أغنامه، وكان يومه شاقاً مضنياً يقضيه فى أعمال كثيرة متنوعة بحيث يأوى إلى فراشه الحقيقى فى الليل وقد هدهد التعب، ولم يكن الفلاح الأوروبى يأكل اللحم الطازج سوى مرة واحدة فى عيد ميلاد المسيح، ويحتفظ بما يتبقى منه مقدداً وعلماً لياكل منه طوال العام. وفى كل الأحوال لم يكن يأمن على نفسه من الجوع، فبسبب التكلفة الباهظة لوسائل النقل فى ذلك الزمان كان تدهور الزراعة ونقص محصولها الدائم سبباً من أسباب المجاعة.

وكانت السنوات العشر التى سبقت الدعوة إلى الحملة الصليبية الأولى سنة ١٠٩٥م/٤٩٦هـ سنوات صعبة بالفعل على سكان أوروبا ولاسيما شمال فرنسا وغرب ألمانيا، إذ شهدت تلك السنوات سلسلة تكاد تكون متصلة من الفيضانات والمجاعة، وكان الرعب يستولى على سكان تلك المناطق من ذلك الوباء الغامض الذى كان يضرب فجأة إحدى القرى أو المدن، فلا يتركها إلا وقد حصدها أغلبية سكانها بمنجل الموت والعذاب البطيء. ومن الطبيعى أن يكون رد فعل الناس البسطاء المعتاد هو التعلق بأهداب الدين أو محاولة التكفير عن الذنوب والتجمع حول الزهادين والتسالك بحثاً عن الخلاص. ولذا وجدت الدعوة التى دعاها البابا أوربان الثانى لشن حرب صليبية ضد المسلمين تربة خصبة نمت وترعرعت فيها.

وبالنسبة لمعظم سكان غرب أوروبا فى القرن الحادى عشر الميلادى كانت القرية هى الوحدة الأساسية إقتصادياً وسياسياً واجتماعياً، وأيضاً على المستوى الدينى . وكان كل رجل يعمل فى الأرض الزراعية مقيداً بالتزامات إقطاعية تجاه أحد السادة الإقطاعيين . وفى ظل تلك الظروف المعيشية الصعبة كان جزء كبير من الفلاحين الذى كانوا يتمتعون بقدر من الحرية يتحولون تدريجياً وبمعدلات متصاعدة فى كافة أنحاء أوروبا إلى عبيد يخدمون السادة الإقطاعيين أو النبلاء . وكان كثيرون منهم يفضلون اللجوء إلى الكنائس والأديرة ليصبحوا عبيداً للرب، يعملون فى الأراضى الزراعية الكثيرة التى تمتلكها الكنائس والأديرة فى ذلك الوقت، على ألا يستمروا فى خدمة أسيادهم الإقطاعيين الذين يذوقون المر معهم، فقد كان هؤلاء السادة أو أصحاب الإقطاعيات يعتبرون أنفسهم ملائكة لكل شىء، بل ملائكة للأرض ومن عليها، وأن من حقهم أن يعهدوا للفلاحين بإستخدامها فقط دون حيازتها، وكان على الفلاح أن يقدم عدداً من الخناوير لسيدة الإقطاعى إذا أراد أن ترعى خناويره فى الغابة الملاصقة للقرية، كما كان عليه أن يقدم له ريداً أو شيئاً من هذا القبيل مقابل أن يترك أبقاره ترعى فى المراعى المحيطة بالحقول، وإذا صاد القروى بعض الأسماك من المجارى المائية أو البحيرات الواقعة داخل نطاق الإقطاعية يكون للسيد الإقطاعى حق الحصول على نصيب من هذا الصيد . وباختصار كان السيد الإقطاعى يعتمد فى غذائه على ما ينتجه الفلاحون . كما كان يعتمد على قوه سواعدهم فى بناء بيته أو قلعته التى تتوسط الأرض المزروعة، وفى المقابل كان الفلاحون - أو عبيد الأرض - لا يتمتعون بأية حقوق مدنية تجاهه . فلا يمكنهم الرحيل أو ترك الأرض، كما لا يمكنهم إستبدال سيدهم الإقطاعى إلا بإرتكاب جريمة أو المغامرة بالهروب أو بشراء حريتهم بالمال إذا قبل السيد بيعهم . أو إذا توفر لديهم المال - وهذا مستحيل بالطبع -

وهكذا كان الفلاحون فريسة للخوف الدائم، والإضطراب المستمر والإفتقار للأمن، وكانت أيامهم تضى كثيرة فى انتظار مستقبل لا يأتى، وقد وقعوا تحت وطأة الطبيعة التى كانت تهددهم بنقص المحاصيل والمجاعات والأوبئة بين الحين والآخر، كما وقعوا تحت وطأة سادتهم الإقطاعيين الذين ساموهم سوء العذاب كما جعلوهم وقوداً لحروبهم الإقطاعية .

وفى ظل تلك الاوضاع الاجتماعية المحبطة والحياة القاسية والجو الفكرى المشبع بالخرافات والتدين العاطفى والتعصب وجدت دعوة البابا أوربان الثانى للقيام بحملة صليبية صدىً واسعاً وإستجابة كبيرة من أولئك الفلاحين والفقراء الذين وجدوا فى دعوته فرصة رائعة للخلاص من الفقر والإحباط والسادة الإقطاعيين أيضاً. كما أنها كانت تمثل لهم فرصة للخلاص أرواحهم المثقلة بالذنوب والاثام! لقد كان الجوع الذى عض بآتيايه معظم أنحاء أوروبا دوماً لتحديد غربها قبل نهاية القرن الحادى عشر بسنوات قليلة وراء خروج الأعداد الغفيرة من الفلاحين والمعلمين خلف قادة العصابات الذين شكلوا ما عرف باسم « الحملة الشعبية » أو « حملة الفلاحين » التى سبقت الحملة الصليبية الأولى.

لقد ربط هؤلاء الجياع والمحرومين أحوالهم المتردية باعتقادهم بقرب نهاية العالم التى ستتقلهم إلى اورشليم السماء، ولم يكن فى وسعهم أن يفرقوا بين اورشليم الحقيقية فى فلسطين، وأورشليم التى تخيلوها فى السماء فى أبهى الصور وأحلامها.

وكمقهورين عاشوا طويلاً فى إحباط ويؤس، فإنهم رأوا فى الدعوة الصليبية فرصة هائلة إختلط فيها الطمع الدنيوى بالرغبة فى الخلاص. وكما رأى الفلاحون الأرقاء والفقراء فى الحملات الصليبية فرصة لخلاصهم الدنيوى والآخرى، فاستجابوا بسرعة وبشكل كبير لدعوة البابا لهم كى يغزوا المشرق العربى، كذلك رأى فرسان أوروبا ونبلاتها وأمرائها فى تلك الحملات فرصة لتحقيق طموحاتهم لزيادة ثرواتهم وملكياتهم وإتساع منطقة نفوذهم وسيطرتهم سيما بعد أن ضاقت بهم أرض أوروبا ولم تعد إمكانياتها ومواردها تتناسب مع زيادة عددهم. وهذا ما كان يسبب نزاعات مستمرة بينهم ويدفعهم إلى خوض الحروب الكثيرة ضد بعضهم البعض.

وقد ذكر البابا «أوربان الثانى» لمستمعيه من الفرسان ما نصه: «... هذه الأرض التى تعيشون عليها محاطة بالبحر من كل جانب، تحوطها سلاسل الجبال، وتضيق بإعدادكم الكبيرة، وهى لا تفيض بالثروات الكبيرة، إنما تكاد تعجز عن توفير الطعام لمن يقومون بزراعتها، وهذا هو السبب فى أنكم تشنون الحرب ضد

بعضكم البعض ، وتقتلون بعضكم بعضاً .

لقد كانت الزيادة السكانية الكبيرة فى غرب أوروبا فى القرن الحادى عشر الميلادى من أهم الأسباب التى حفزت أبناء الغرب الأوروبى على البحث عن أرض جديدة وموارد جديدة خارج أوروبا، إذ كانت مجالات التوسع الأوروبية عاجزة عن توفير الغذاء الكافى لتلك الأعداد المتزايدة من السكان وعن تحقيق ما يطمح إليه فرسان ونبلاء أوروبا من زيادة ملكياتهم وقرواتهم. ولذلك جاءت الدعوة إلى التوسع فى الشرق العربى الإسلامى، وبمباركة الكنيسة بمثابة الحل السعيد لكل مشكلات الغرب الأوروبى .

ومثلما كان الفقراء من فلاحى أوروبا الانجليز والفرنسيين والألمان، وفرسانهم ونبلائهم يحلمون بكنوز الشرق والحياة الأفضل تحت سمائه، كانت مدن البحر الإيطالية: جنوا وبيزا والبندقية. تحلم بالسيطرة على تجارة البحر المتوسط، ومن ثم السيطرة على تجارة العالم، وذلك لم يكن ليحقق إلا بعد السيطرة على الموانئ العربية المزدهرة شرق وجنوب البحر المتوسط، ومن هنا جاءت مساهمة تلك المدن فى الحملات الصليبية .

وقبل أن تنتقل من غرب أوروبا، مهد الحملات الصليبية، إلى المشرق العربى الإسلامى ونتعرف على حاله قبيل بدء تلك الحملات نرى من الضرورى التعرف على بقية ملامح خريطة ذلك الزمان، فتتعرف على دولتين كانتا سائدتين آنذاك ولهما شأن كبير وبينهما أيضاً صراع، وهما الإمبراطورية البيزنطية ودولة السلاجقة .

(٢) الإمبراطورية البيزنطية

تأسست الإمبراطورية البيزنطية في القسم الشرقي من الإمبراطورية الرومانية في عهد الإمبراطور «أركاديوس» سنة ٣٩٥م وكانت تشمل الأراضي الواقعة في هضبة الأناضول من حدود البسفور حتى نهر الفرات، وعاصمتها كانت القسطنطينية التي بناها «قسطنطين الكبير» على أنقاض مدينة يونانية قديمة كانت تقع على البوسفور وذلك سنة ٣٢٤م. أنشئت تلك الإمبراطورية لمجابهة الفرس، ثم توطدت أركانها كإمبراطورية قوية وذات نفوذ بعد تفكك الإمبراطورية الرومانية ووزوالها. لعبت تلك الإمبراطورية دوراً هاماً في الخلافات الدينية المسيحية وكان بين كنيستها وكنيسة روما صراع طويل كما كان بين تلك الكنيسة والكنيسة القبطية في مصر صراع أيضاً. عجزت تلك الإمبراطورية عن صد الفاتحين العرب الذين إنزعوا منها سورية ومصر وشمالى أفريقيا وذلك بعد سنة ٦٣٢م، كما بلغ العرب حدود عاصمتها القسطنطينية «إستانبول الحالية» مرات عديدة، بلغت أوج قوتها وإزدهارها على عهد السلالة المقدونية في الفترة من ٨٦٧ إلى ١٠٥٧م. وكان بينها وبين السلالة الحمدانية في حلب صراع مستمر. وفي القرنين الحادى عشر والثانى عشر كان هناك صراع كبير بينهما وبين دولة السلاجقة التي كانت في ذلك الوقت بمثابة الجناح العسكرى لدولة الخلفاء العباسيين.



(٣) الدولة السلجوقية

السلجقة فى الأصل قبائل وثنية كانت تستوطن سهول تركستان ونزحوا منها فى القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى إلى الأراضى الإسلامية المجاورة، وإعتنقوا الإسلام بعد أن أسلم جدهم الأكبر «سلجوق»، منشىء دولتهم التى سرعان ما قويت واتسع سلطانها على حساب القبائل التركية المجاورة، ثم واصل «طغرلبك» حفيد «سلجوق» غزوه وزحفه نحو الجنوب والجنوب الغربى فاستولى على خراسان وفارس وبعدهما واصل زحفه نحو الموصل التى إستولى عليها نحو سنة ١٠٥٥م/ ٤٤٨هـ وبعد الموصل سار إلى بغداد، فاستقبله الخليفة العباسى «القائم بأمر الله» وفى بغداد قدم السلجوقى «طغرلبك» فروض الولاء والطاعة لزعيم الإسلام الروحى، خليفة المسلمين، فأعلنه الخليفة ملكاً على جميع الأراضى والبلاد التى غزاها وسيطر عليها، وحين قام أحد أتباع الخلافة الفاطمية «التي كانت على المذاهب الشيعى» ويدعى «أبو الحارث البساسيرى» بثورة على الخليفة العباسى القائم بأمر الله «السنى» وقام بعزله إستغاث القائم «بطغرلبك» الذى هرع إلى بغداد بجيشه وقاتل «البساسيرى» حتى تمكن منه وقتله موطئاً بذلك للقائم بأمر الله أركان خلافته العباسية بعد أن قضى على النفوذ الشيعى فى بغداد

وكما يحدث دائماً بدأ الفاتحون الذين جاءوا منقذين، يتصرفون بإعتبارهم غزاة، فهيجنوا على الخلافة العباسية ودولتهم الضعيفة. وصارت المنطقة بين خراسان وبلاد الشام وحدة سياسية واحدة تتبع الخليفة العباسى إسماً ولكنها تدين بالخضوع الفعلى لسلطة سلاطين السلجقة العظام: «طغرلبك» ثم «ألب أرسلان» ومن بعدهما «ملكشاه» واستمر التوسع السلجوقى فى بلاد الشام على حساب الفاطميين وفى آسيا الصغرى على حساب البيزنطيين التى كانت دولتهم تعاني من الضعف وتوشك على الإنهيار، وكثيراً ما كان أباطرتها يلجأون لطلب العون والمساعدة من بابا الفاتيكان «باعتبار إمبراطوريتهم مسيحية» لكى يحث فرسان أوروبا ومحاربيها للوقوف إلى جانبهم فى وجه «دولة السلجقة الفتية».

كان هذا هو حال الدولة البيزنطية و«الدولة السلجوقية قبيل الحملات الصليبية، فماذا كان حال المشرق العربى الإسلامى آنذاك؟.

(٤) المشرق العربى الإسلامى

قبيل الحروب الصليبية

فى النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى، كان المسلمون فى المنطقة العربية موزعين فى ولائهم السياسى بين الخلافة العباسية السنية فى بغداد والخلافة الفاطمية الشيعية فى القاهرة، وبالإضافة إلى النزاع والتخاصم المستمر بين الخلافتين، فإن أحوالهما الداخلية كانت مرتبكة بالقدر الذى جعل بلاد الشام وهى المجال الحيوى الذى تنازعت الخلافتان السيادة عليه - موزعة أو مقسمة إلى عدة إمارات صغيرة، كل إمارة مستقلة بذاتها يحكمها حاكم عربى أو حاكم من السلاجقة. وكانت مشاعر الحقد والشك المتبادله بين هذه الكيانات السياسية الصغيرة سبباً فى العداء السياسى والعسكرى الذى كان حائلاً دون توحيدها فى مواجهة الغزو الصليبي.

كانت الأحوال السياسية الداخلية المرتبكة قد جعلت الخلافة أو الدولة العباسية عملياً فى أيدي الأمراء السلاجقة، يتحكمون فيها ويوجهون دفة الحكم بها كيف شاؤوا.

وعلى الجانب الآخر كانت الخلافة الفاطمية قد دخلت مرحلة التدهور السياسى الداخلى بعد أن سيطر الوزراء فيها على الخلفاء وحوّلهم إلى دُمى يحركونها حسب أهوائهم.

وعلى الرغم من المحاولات العسكرية المتكررة إلا أن الفاطميين فشلوا فى إسترداد نفوذهم الضائع فى الشام. وكانت الخلافات السياسية والمعارك العسكرية تشتعل بينهم وبين السلاجقة حُماة الخلافة العباسية، الذين كانوا يطمحون إلى ضم الشام ومصر تحت رايّتهم. كما كانت هناك منازعات ومناوشات دائمة بين السلاجقة والسلاجقة، وبين السلاجقة وحكام الإمارات العربية فى الشام.

وعندما وصل الصليبيون إلى المنطقة كانت هناك إمارة فى حلب يحكمها «رضوان» الموالى للفاطميين، وكان العداء مستحكماً بينه وبين إمارة الشرق التى يحكمها «دقاق» الموالى للعباسيين، أما إمارة «شيراز» على نهر العاص قرب حماة

فكانت تحت حكم بنى منقذ، على حين كانت طرابلس تحت حكم بنى عمار الشيعة، أما بيت المقدس فقد ظل بأيدي السلاجقة حتى سنة ١٠٩٨م/٤٩١هـ حين إستولى عليها الفاطميون فى أثناء وجود الصليبيين فى أنطاكية، أما مدن الشمال فى آسيا الصغرى وأعالى بلاد الشام فكانت تنتقل من حكم البيزنطيين إلى حكم المسلمين، ثم العكس، بطريقة تبادلية، وبإيقاع سريع، وكانت ضحية التخريب المستمر والتدهور.

وهكذا وعلى مدى قرن كامل قبل قدوم الصليبيين، كانت المنطقة العربية الإسلامية مقسمة إلى كيانات سياسية صغيرة متصارعة، ولذلك عندما قدم الصليبيون لم يكن لدى حكام العرب والمسلمين سوى ميراث طويل من الشك والمرارة تجاه كل منهم للآخر. ولهذا مضت قوات الصليبيين كما تمضى السكين فى الزبد.

وفى طيات الموجة الصليبية الأولى غرقت هذه الإمارات الصغيرة الواحدة تلو الأخرى. وكان سقوط مدينة «نيقية» عاصمة دولة السلاجقة فى أيدي قوات الحصار المشتركة من الصليبيين والبيزنطيين صدمة ونذير خطر لجميع القوى الإسلامية، ولكن الأناية وضيق النظر جعل تلك الصدمة وذلك النذير بلا فائدة

الفصل الثاني

الحمالات الصليبية

الحملة الصليبية الأولى

فى السابع والعشرين من نوفمبر سنة ١٠٩٥م / ٤٩٦هـ، وفى حقل قسيح خارج مدينة «كليرمون»، وأمام جمع ضفير من الناس الكنسيين والعلمانيين، خطب البابا «أوربان» الثانى خطاباً حماسياً مطولاً استعرض فيه ما وصفه باضطهاد المسلمين للحجاج المسيحيين فى بيت المقدس. ودعا فيه آلاف الكاثوليكين الذين إحتشدوا من حوله إلى أن يشنوا حرباً مقدسة ويزحفوا على المشرق العربى الإسلامى ليحرروا بيت المقدس ويخلصوه من أيدي المسلمين الكفرة - على حد تعبيره. ولم ينس فى خطابه أن يمتدح شجاعة الفرنج^(١) وقدراتهم القتالية وأن يذكرهم بأمجاد أسلافهم العظام وأن يحثهم على نبذ خلافاتهم ونزاعاتهم وعدم إراقة الدماء المسيحية فى حروبهم ضد بعضهم. كما لم ينس أن يشير إلى منح غفران جزئى لكل من سيشارك فى الحملة الصليبية التى سيشنونها لتحرير بيت المقدس سواء مات فى الطريق إلى الأرض المقدسة أو قتل فى المعارك. معتبراً كل من يشارك فى الحملة جندياً فى جيش الرب. وفى نهاية خطابه وزع صلباناً مصنوعة من القماش على جموع المحتشدين حوله ليخططونها على ملابسهم، وبذلك صار الصليب شارة لكل فارس مشارك فى الحملة الصليبية. والواقع أن خطبة البابا العاطفية الحماسية بما تخللها من تلويح بالمكاسب الدنيوية وترغيب فى المكاسب الدينية لقيت استجابة فورية وهائلة من الحاضرين، ولم تكن الاستجابة ناتجة من فصاحة البابا وقوة بيانه بقدر ما كانت تعبيراً عن أن البابا طرح أمام أبناء الغرب الكاثوليكى مشروعاً طال انتظارهم إياه. فقد كانت الدعوة إلى القيام بالحملة الصليبية تناسب العصر تماماً، إذ كان المجتمع الإقطاعى بغيرسته وكبرياته، وتعصبه ضد غير الكاثوليك، على أتم الاستعداد لتلبية مثل هذا النداء الذى يحل مشكلته فى الدنيا، ويضمن له المغامرة والكسب، مثلما يضمن له خلاص الروح والفردوس السمارى.

وزيادة فى ترغيب الأوروبيين وتشجيعهم للمساهمة فى الحملة الصليبية

(١) أطلق العرب لفظ الفرنج على الفرنسيين أولاً ثم أصبح يطلق على الأوروبيين.

أصدرت الكنيسة مراسيم غاية فى الأهمية لصالح الصليبيين فأتت فترة غيابه تُعفى أملاك الصليبي من الضرائب، كما يمنح تسهيلات فى الديون التى يستدينها لا سيما وأن تكاليف الرحلة قد اضطرت كثيرين إلى الاستدانة من أقاربه ومعارفه، ومن الكنيسة أيضاً.

وتحدد يوم الخامس عشر من شهر أغسطس من العام التالى ١٠٩٦م/٤٩٧هـ موعداً لرحيل الحملة، حين تكون المحاصيل الزراعية قد جمعت من الحقول. أما مكان الالتقاء والتجمع فكان مدينة القسطنطينية الحصينة على ضفاف البوسفور.

هكذا، وعلى مدى ثمانية شهور بعد خطاب (كليرمون)، أخذ البابا «أوربان» الثانى يتنقل بين أنحاء الغرب والجنوب الفرنسى داعياً إلى حملته الصليبية فى محاولة لأن يجند لها أكبر عدد من الفرسان والأمراء البارزين بعد أن رأى أن عدد الحاضرين الذين استمعوا إلى خطابه لم يكن بالقدر الكافى.

وطلب البابا من أساقفته ومن المبشرين والدعاة الفقراء أن يواصلوا ما بدأه ويدعوا للحملة الصليبية أينما رحلوا وفى كل مكان يذهبون إليه. وكان من بين هؤلاء وأشهرهم: «بطرس الناسك» الذى هجر الدير بتكليف من البابا وأخذ يتجول فى شتاء سنة ١٠٩٥ / ١٠٩٦م بين أرجاء الشرق الفرنسى واللورين داعياً إلى حملة البابا. وفى كل مكان كان يذهب إليه هذا البطرس، كان يسحر ألباب الفقراء والمعدمين بفصاحته التى تناقض هيئته الزرية، إذ كان رث الثياب، حافى القدمين، بينه وبين حمارة الذى يتنقل عليه شبه كبير، وحيثما حلّ كان الفقراء المأخوذون والمتأثرون بما يقول يتزاحمون ويتسابقون لنزع شعرات من ذيل حماره المسكين ومن جسده طلباً للبركة.

وسرعان ما التف حول بطرس الناسك جموع غفيرة من الفلاحين والفقراء والحشالة الذين لم يصبروا حتى يرحلوا فى الموعد الذى حدّده البابا أوربان الثانى للرحيل، فوجد بطرس نفسه وقد إمتطى حماره الذى يشبه كثيراً فى مقدمة جيش يتكون من عدد قليل من الفرسان الذين يمتطون صهوات جيادهم وخلفهم آلاف من الراجلين ثم العربات الثقيلة التى تجرها الثيران حاملة المؤن والأموال والمعدات التى كان بطرس قد جمعها من أثرياء الغرب الأوروبى. وغادر هذا الجيش

العجيب الأواصي الألمانية فى ربيع سنة ١٠٩٦م/٤٩٧هـ.

وبالطبع لم يكن بطرس الناسك الذى كان قادراً على تحريك مشاعر الجماهير وإثارة عواطفهم، يصلح لقيادة مثل هذا الجيش الذى تألف من معدمين وفقراء، ومغامرين وأفاقين ومجرمين وبنات هوى، كلهم يحلم بثروة الشرق ونعيمه، كما يحلم بملكوت السماء الموعود.

وما أن وصل ذلك الجيش - الذى كان بمثابة طليعة للحملات الصليبية التى تواترت فيما بعد - إلى القسطنطينية عاصمة الامبراطورية البيزنطية حتى أخذ يعيث فيها فساداً ونهباً وقتلاً وحرقة، مما اضطر الإمبراطور البيزنطى لأن ينقلهم بسرعة (أو يطردهم) عبر المضائق إلى آسيا الصغرى - بعد التفاهم مع قائدهم بطرس الناسك بالطبع - وهناك فى آسيا الصغرى وقعوا فى شباك السلاجقة التى كانوا قد نصبروا لهم، وأجهزوا عليهم. وبذلك انتهت تلك الحملة الصليبية الشعبية فوق تراب الشرق العربى الإسلامى الذى داعب خيالهم وحرك فيهم مشاعر الطمع على مدى ألفين ومائتى ميل هى طول المسافة من الغرب الأوروبى إلى الشرق.

فى تلك الأثناء كانت جيوش الفرسان فى غرب أوروبا تتأهب للرحيل، وكانت قد تكونت عدة جيوش على أساس من التقسيمات اللغوية والجنسية من جهة، وعلى أساس من الروابط الاقطاعية من جهة أخرى.

فكان هناك جيش يقوده «جودفرى البويلونى» وبصحبه أخوه «بلدوين» وتألف جيشهما من فرسان شمال فرنسا واللورين، وجيش يقوده «روبرت» الثانى ومعه «ستيفن هنرى» زوج أخته، وتألف جيشهما من فرسان غرب فرنسا ونورماندى، وجيش يقوده «ريمون» الرابع وبصحبه «أديمار» المندوب البابوى، وتألف هذا الجيش من فرسان جنوب فرنسا، وجيش يقوده «هيو»، شقيق فيليب الأول ملك فرنسا، وجيش يقوده «بوهيموند» ويتألف من فرسان النورمان وقد بلغ عدد جنود تلك الجيوش المشاركة فى الحملة الصليبية الأولى، أكثر من ٧٠٠ ألف مقاتل. وصلت تلك الجيوش تبعاً إلى الأراضى البيزنطية وتجمعت فى القسطنطينية حيث استقبلها الإمبراطور البيزنطى الذى لم يسمح إلا للقادة وعدد قليل من مرافقيهم بالدخول إلى العاصمة الامبراطورية وفرض على القوات الصليبية أن يضربوا خيامهم

ويعسكروا خارج المدينة، وذلك لسابق تجربته ومعاناته من الحملة الصليبية الشعبية التي قادها «بطرس الناسك».

وفي القسطنطينية كادت الحملة الصليبية الأولى أن تفشل وينقلب الحال إلى قتال بين البيزنطيين والصليبيين بعد أن تأزمت الأمور بين قادة الحملة والامبراطور البيزنطى الذى كان يصر على أن يُقسم له قادة الحملة يمين الولاء والتبعية قبل أن يسمح لهم بعبور أراضيه، بينما قادة الحملة الذين يملأهم الغرور والغطرسة كانوا يرفضون ذلك معتبرين أنفسهم فى مهمة مقدسة تستوجب خضوع الجميع لهم، كما أن من أسباب تلك الأزمة العداء القديم بين الامبراطورية البيزنطية وبين الغرب الاوروبى والخلاف المتوارث بين الكنيسة البيزنطية وبابا الكاثوليك على رعاية العالم المسيحى.

وفى النهاية تمكن الامبراطور البيزنطى بدهائه أن يجعل قادة الحملة يقسمون له بالولاء، ومن لم يقسم منهم (وخصوصاً ويون كونت تولور الذى كان يقترب عمره من الستين ويقود أكبر جيوش الحملة). أقسم بأن يحمى شرف الامبراطور وحياته!!

بعد ذلك - وبعد فاصل استعراض القوة بين قادة الحملة وإمبراطور بيزنطة - بدأت عجلة الحرب تدور وعبرت القوات الصليبية مضيق البوسفور إلى آسيا الصغرى الصغرى (تركيا الحالية). وهناك على بعد أميال قليلة من القسطنطينية وجد الصليبيون أنفسهم فى «أرض العدو» لأول مرة. وهناك انضم إليهم بطرس الناسك وشراذم الناجين من حملته الشعبية. وكان الامبراطور البيزنطى قد اعتذر عن قبول العرض الصليبي بقيادة الحملة، واكتفى بأن زود الجيش الصليبي بعدد من الأدلاء والمرشدين وعدد من العساكر والقادة، كما ظل يرسل لهم لهم المؤن والامدادات عن طريق البر والبحر.

وفى السادس من مايو سنة ١٠٩٧م / ٤٩٨هـ وصلت جيوش الحملة أمام مدينة «نيقية» عاصمة الدولة السلجوقية التي كان يحكمها «قلج أرسلان»، وكانت المدينة تتحكم فى الطريق الاساسى عبر هضبة الأناضول، فتم فرض حصار مشترك من القوات الصليبية والقوات البيزنطية حولها إلى أن استسلمت، فاقتحمها

الصلبيون وأخذوا في سلبها ونهبها وتدميرها وذبح أهلها.

وبُهِت المسلمون بوصول هذه القوات الصليبية إلى «نيقية» - وكانوا في الواقع قادرين على إبادتها، إلا أن ميراث الشك والعداوة بين حكام المنطقة والذي غرسته وأنبتته طوال قرن كامل حروب ودسائس ومنازعات سادت المنطقة، جعل المسلمين عاجزين عن مواجهة الصليبيين ولا بد أن السلاجقة ظنوا أن الحملة الصليبية لم تكن أكثر من حملة عسكرية بيزنطية من النمط الذي تعودوا عليه.

أما الفاطميون (الشيعة) فإنهم لم يفكروا أبداً في مساعدة السلاجقة (السنين) ضد الصليبيين، وإنما بالعكس حاولوا الاستفادة، غير مدركين للخطر الكبير المهدق بهم وبالمملكة العربية الإسلامية كلها، فسارعوا بالزحف على القدس، التي كانت حتى ذلك الحين بأيدي السلاجقة، واستولوا عليها، مستغلين ضعف قبضة السلاجقة عليها نتيجة إنشغالهم بمواجهة الصليبيين في الشمال. وبعد سقوط «نيقية» واصل الصليبيون زحفهم، فاستولوا على إمارة «الرها» التي كانت تشغل مساحة من الأرض على جانبي نهر الفرات شمال العراق، وسكانها أغليتهم كانت من الأرمن الذين اعتنقوا الإسلام، وكانت أهميتها تتمثل في دورها كدولة حاجزة في الشمال الشرقي من دولة السلاجقة وبعد سقوط إمارة الرها، أسس «بلدوين» فيها أول مملكة صليبية في الشرق الإسلامي.

ثم واصل الصليبيون زحفهم نحو مدينة «انطاكية» ذات الموقع البديع بالقرب من البحر على منحدر يؤدي إلى وادي نهر العاصي الجميل، والتي كانت في تاريخها القديم درة في تاج الامبراطورية الرومانية القديمة. بدأ الصليبيون في الحادي والعشرين من أكتوبر سنة ١٠٩٧م / ٤٩٨هـ يفرضون الحصار على انطاكية، واستمر حصارهم لها حوالي تسعة أشهر، حاول خلالها أمراء دمشق وحمص السلاجقة فك ذلك الحصار عدة مرات ولكنهم لم يفلحوا. وخلال ذلك الحصار ظن الفاطميون أن بوسعهم الاستفادة من الوضع، فأرسل الأفضل بن بدر الجمالي وزير الخليفة الفاطمي المستعلى - وكان صاحب السلطة الفعلية في الدولة آنذاك - من يفادى الصليبيين لاقتسام بلاد الشام نكاية في السلاجقة والعباسيين، ولكن المفاوضات فشلت. وتمكن الصليبيون بعد حصار التسعة أشهر من إستمالة

أحد الأرمن المشتركين في الدفاع عن المدينة، ففتح لهم باب البرج الذي كان قائما على حراسته فتدفقوا منه إلى داخل المدينة، وتمكنوا من السيطرة عليها.

وهكذا سقطت المدينة الحصينة، وأسس فيها القائد الصليبي «بوهيمند» ثاني إمارة صليبية على أرض المشرق. وقد كان ذلك في يونية سنة ١٠٩٨ م / ٤٩٩ هـ، واستمر وجودهم فيها حتى سنة ١٢٦٨ م / ٦٦٦ هـ حين تحررت على يد الظاهر بيبرس.

بعد انطاكية واصل الصليبيون زحفهم نحو القدس التي وصلوا إليها في السابع من يونية سنة ١٠٩٩ م، وفرضوا عليها حصاراً دام خمسة أسابيع، حتى عجز الفاطميون بدخلها عن الصمود، فاقتحموها يوم الجمعة ١٥ يوليو سنة ١٠٩٩ م / ٢٢ شعبان سنة ٤٩٢ هـ وأخذوا في سلبها ونهبها وقتل كل من كان حياً بها، حتى لقد بلغ عدد من قتلوه بها من المسلمين نحو سبعين ألفاً.

وعن الفظائع التي ارتكبتها الصليبيون ببيت المقدس وما حوله، يقول «ابن خلدون» في كتابه «العبر»: «استباح الفرنجة بيت المقدس وأقاموا في المدينة أسبوعاً ينهبون ويدمرون، وأحصى القتلى بالمساجد فقط من الأئمة والعلماء والعباد والزهاد المجاورين فكانوا سبعين ألفاً أو يزيدون...».

ويقول «ويلز» في كتابه «موجز تاريخ الشرق الأوسط»: «حدثت ببيت المقدس مذبحة رهيبة، وكان دم المقيهورين يجرى في الشوارع، حتى لقد كان الفرسان يصيبهم رشاش الدم، وهم راكبون، وعندما أرخى الليل سدوله جاء الصليبيون وهم يبكون من فرط الفرح، وخاضوا في الدماء التي كانت تسيل كالخمر في معصرة العنب، واتجهوا إلى النواوس ورفعوا أيديهم الممزجة بالدماء يصلون لله شكراً».

ويقول المؤرخ المسيحي «نقولا زيادة» في كتابه «الصليبيون في الشرق»: «والحملة الصليبية الأولى، والفظائع التي ارتكبتها في طريقها وفي احتلال القدس ليست مما يشرف، وقد تظهر لنا رغبات الصليبيين من خلال تصرفهم مع مسيحي فلسطين أنفسهم، فقد استولوا على أديرتهم وطردوهم من الكنائس والبيوت،

فتبعثر المسيحيون فى جهات فلسطين وشرق الاردن، وسار البطريرك إلى القاهرة ليعيش فى حماية الفاطميين».

هذا ولم يُنج من سكان القدس سوى قائد حاميتها الفاطمى «افتخار الدولة» وعدد من رجاله.

وعندما خمدت شهوة القتل لدى الصليبيين، كانت أولى المهمات التى واجهتهم هى مواراة الجثث التى فاحت منها الروائح التتنة فى كل أنحاء المدينة أو التخلص منها بطريقة ما. ثم اجتمع زعمائهم فى كنيسة القيامة لكى يقرروا ما ينبغى عمله بعد أن استولوا على المدينة. فقد كان واضحاً أنهم حين تركوا أوروبا لم تكن لديهم فكرة واضحة عما سيفعلونه بالقدس بعد الاستيلاء عليها، كما أن البابا «أوربان» الثانى - الذى مات قبل أن يعرف بخير الاستيلاء على القدس - لم يحدد لهم نظام الحكم فى المدينة المقدسة. وبعد مشاورات ومداولات بين قادة الحملة الصليبية انتهوا إلى اختيار «جودفرى البويلونى» ليكون حاكماً لبيت المقدس تحت لقب قضاضا هو «حامى الضريح المقدس»، ولم يلبث جودفرى أن مات فى الثامن من شهر يوليو سنة ١١٠٠م/ فاستدعى بلدوين أخوه من إمارته فى الرها ليتولى الحكم بدلاً منه.

وهكذا قامت مملكة بيت المقدس الصليبية التى كانت فى ذلك الحين تتكون من مدينة بيت المقدس نفسها إلى جانب يافا واللد والرملة وبيت لحم والخليل.

فى ١٢ أغسطس ١٠٩٩م/ ١٤ رمضان ٤٩٢هـ كان «الأفضل شاهنشاه» أمير الجيوش المصرية قد جاء بجيشه لمهاجمة الصليبيين، وحين كان ينتظر قدوم الاسطول المصرى بالقرب من عسقلان، ليعاونه فى هجومه العسكرى على الصليبيين، فاجأه الصليبيون وأخذوه على غرة وهزموه هزيمة قاسية راح ضحيتها عشرة آلاف رجل، وفر «الأفضل» غرباً حتى عاد إلى القاهرة. وكانت هذ المعركة بمثابة تأمين وتثبيت للوجود الصليبي فى بيت المقدس إلى حين.

وفى العام التالى خرج «شرف المعانى» ابن الوزير الفاطمى «الأفضل» بجيش قوامه عشرون ألفاً من المقاتلين إلى عسقلان ومنها رحف إلى الرملة، وهناك التقى بالصليبيين وأوقع بهم هزيمة قاسية وأسر منهم مئآت أرسلهم إلى القاهرة مكبلين

بالحديد ليسيروا فى شوارعها مكللين بالخزى والعار قبل أن يوضعوا فى السجون .
وعلى الرغم من هذا الانتصار إلا أنه - فى الحقيقة - لم يكن كافياً لاسترداد القدس
وطرد الأعداء منه .

وبعد الاستيلاء على بيت المقدس ، رحل بعض كبار قادة الصليبيين إلى
أوروبا ، بينما ظل العدد الأكبر منهم فى المنطقة العربية حيث كان عليهم أن يقوموا
بمهمات الادارة الاستعمارية الإستيطانية ، ولأنهم كانوا أقل كثيراً فى عددهم من
المسلمين والعرب أصحاب البلاد ، فقد حاولوا قدر طاقتهم أن يشجعوا الهجرة من
أوروبا إلى فلسطين لتدعيم وجودهم فيها .

ومن ناحية أخرى كانت أخبار النجاح الذى أحرزته الحملة الأولى للصليبيين
قد شجعت عناصر أوروبية جديدة على القدوم إلى الشرق العربى رغبة فى
الحصول على نصيب من الغنائم التى شاعت أخبارها فى الغرب الأوروبى مع
العائدين من فلسطين .

فى هذا الوقت كان البابا «باسكال» الثانى خليفة البابا «أوربان» الثانى -
الداعى الأول للحملات الصليبية - يقوم بعملية دعائية نشطة لتجميع حملة جديدة
تساعد الصليبيين الذى نجحوا فى إقامة مملكة وإمارتين فى بلاد المسلمين .

وفى غرب أوروبا وتحديداً سنة ١١٠١م / ٤٩٤هـ ، تجمعت حملة جديدة
لمساندة صليبي الشرق . ومن «المبارديا» قاد «آنسلم» أسقف ميلانو جموعاً من المسيحيين
تشبه جيش «بطرس» الناسك وغادروا ميلانو فى ١٢ سبتمبر من نفس العام .

وسلكوا نفس الطريق الذى سلكته جيوش الحملة الصليبية الأولى ، وعندما
وصلوا إلى القسطنطينية بدأوا فى إثارة المتاعب الصليبية المعتادة ، فأسرع الامبراطور
البيزنطى بنقلهم بسرعة إلى آسيا الصغرى ، وهناك لحقت بهم الجيوش الألمانية ثم
الجيوش الفرنسية .

وفى تلك الاثناء كان «برهيموند» القائد الصليبي الشهير أسيراً لدى أمير
سيواس «الغازى بن الدانشمند» ، وسيطرت على صليبي الحملة الجديدة فكرة
الزحف لتحريره ، ولكن السلاحقة ، الذين تلقوا هزيمة مريرة من الحملة الصليبية

الأولى - نتيجة فرقته وانقسامهم - كانوا يعون الدرس جيداً هذه المرة، فاتحدت جهودهم في مواجهة جيوش تلك الحملة الصليبية الجديدة وأطبقت جيوش «قلج أرسلان» سلطان السلاجقة، و «رضوان» أمير حلب و «إلغازي» أمير سيواس على الصليبيين الذين تبدد جمعهم بين قتيل وجريح وأسير، وهرب الزعماء في الوقت المناسب ليحاولوا أن يشيعروا أن هزيمتهم كانت بسبب خيانة الامبراطور البيزنطي، وانسحب الناجون من فلول هذه الحملة إلى القدس.

من ناحية أخرى بدأ الصليبيون يمدون نفوذهم في الأراضي والموانئ التي كانت تفصل أو تصل بين النقاط المتناثرة التي استولوا عليها. وفي بطاء عتيد بدأوا يفرضون سلطانهم على منطقة تلو الأخرى، في حين بدت المقاومة العربية الإسلامية عاجزة تماماً عن التصدي لهم. فاستولوا سنة ١١٠١م / ٤٩٤هـ على سروج وحيفا وأرسوف ثم قيسارية. وكانت جنوا (في إيطاليا) بأساطيلها خير عون لهم دائماً.

وحاول الفاطميون في السنة التالية أن يشنوا هجوماً مضاداً على الصليبيين ولكنه باء بالفشل على الرغم من فداحة خسائر الصليبيين.

ثم في سنة ١١٠٣م / ٤٩٦هـ - ومن جهة أخرى - استولى البيزنطيون على اللاذقية، ثم استولى الصليبيون على عكا سنة ١١٠٤م / ٤٩٧هـ، وبعدها استولوا على طرابلس سنة ١١٠٩م / ٥٠٢هـ بعد حصار طويل دام سبع سنوات وأقاموا فيها إمارتهم الصليبية الثالثة.

وهكذا تمكن الصليبيون من فرض سيطرتهم على ساحل البحر المتوسط كله باستثناء صور وعسقلان.

وكان معنى هذا اختلال كبير في التوازن العسكري لصالح الصليبيين بالشكل الذي أقلق إمارة دمشق - التي لم تخضع للصليبيين حتى ذلك الحين.

وإزاء الفشل على محور دمشق - القاهرة، أو فشل تنسيق الجهود الإسلامية بين الشام ومصر، بدأ أمير دمشق «طغتكين» يحاول عقد تحالف مع حاكم الموصل الجديد «مودود» الذي كان بدوره يحاول تنظيم تحالف إسلامي كبير لطرده الفرنج

من بلاد الشام ومن المنطقة العربية .

وفي نفس الوقت وعلى التوازي مع هذا المسعى من حاكم دمشق وحاكم الموصل، كان العالم الإسلامي قد بدأ يشهد ظاهرة إيجابية، إذ تشكل رأى عام ضاغط يقوده أصحاب الرأى والمفكرون وشيوخ المساجد، بدأ يتساءل عن سبب تخاذل الحكام وأنانيتهم وضيق أفقهم الذى ضيع البلاد وأذل العباد (على حد تعبير ابن الأثير).

وأنارت أعداد اللاجئين الهارين من مذابح الفرنج مشاعر الإستياء والغضب فى كل مكان ذهب إليه اللاجئين، كما أدرك المسلمون أن الصليبيين قد جاءوا إلى بلادهم بقصد البقاء، وكانت تلك صدمة نفسية مؤلمة.

وبدأت الدعوة إلى الجهاد تسرى بين الناس فى العالم العربى الإسلامى بسرعة كبيرة، بحيث عمت سائر المناطق، وفى رحم هذه الحركة القوية تبلورت اتجاهات المقاومة العربية الإسلامية ضد الصليبيين.

وظهر «عماد الدين زنكى» الذى دانت له الموصل سنة ١١٢٧م / ٥٢١هـ، ليقود حركة الجهاد والمقاومة التى بدأها من قبله «مودود» على محور الموصل / دمشق.

وما لبث «عماد الدين زنكى» أن صار أقوى حاكم مسلم فى زمانه لأنه طوع قوته وموارده العسكرية فى خدمة المطلب العربى الإسلامى العام، أى الجهاد ضد الغزاه حملة الصليب. وبرزت إمارة الموصل باعتبارها سابقة ومقدمة للدول العسكرية التى يقودها ملك/مقاتل، لكى تتولى مهمة قتال الصليبيين، حتى لمجحت فى طردهم نهائياً من المنطقة العربية بعد فشل كل من الخلافتين العباسية والفاطمية فى التصدى لهم، وهذه الدول التى نعينها هى الدولة الأيوبية ودولة المماليك.

وشيئا فشيئا تمكن «عمار الدين زنكى» من التغلب على النعرات الانعزالية فى كل من بلاد الشام والعراق. فتمكن سنة ١١٣٧م / ٥٢٤هـ. من ضم مدينة حلب وتوحيدها مع إمارته فى الموصل، بعد أن تقرب من أميرها وتزوج إبنته، وكان هذا أمراً فى غاية الخطورة على الصليبيين فى شمال بلاد الشام لأنه كان يقطع الطريق بين الرها وغيرها من المستوطنات الصليبية، وفى العام التالى استولى على حماه، وتوالت فتوحاته وتوسعاته فاستولى على حمص سنة ١١٤٣م / ٥٣٢هـ وبذلك أصبح يسيطر على مساحة كبيرة من الأرض التى تحيط بإمارة الرها التى يحتلها

الصلبيون من ناحية الشرق ومن ناحية الجنوب الغربى .

وصار الطريق ممهداً أمامه لتوجيه ضربة قوية للصلبيين، ولكن الذى أجّل هذه الضربة ووقف حائلاً دون اتمام جهوده لتوحيد الجبهة الإسلامية فى مواجهة العدو الصليبي هو حاكم دمشق «معين الدين» الذى رفض دعوات «نور الدين زنكى» المتكررة له لكى ينضم لحلفه الإسلامى وفضل الاحتفاظ بملكه الخاص فى دمشق ومهادنة الصليبيين، فاستغل نور الدين زنكى تعاطف أمالى دمشق معه وحماسهم للثأر من الصليبيين، وقام بالزحف على دمشق وحصارها حتى يجبر حاكمها معين الدين على تغيير موقفه، لكن الأخير سارع بطلب الحماية من حاكم بيت المقدس الصليبي، الذى لم يفوت الفرصة وأرسل له جيشاً صليبياً لم يشترك معه فى محاربة نور الدين، فأثر نور الدين الانسحاب حتى لا تضيق الدماء الإسلامية فى معركة جانبية تبعده عن هدفه، وهو دحر الصليبيين وتحرير بيت المقدس من قبضتهم النجسة .

وبعد أن انسحب من أمام أسوار دمشق، والتقط أنفاسه رحف بجيشه نحو الرها، وبعد حصارها لمدة ثمانية وعشرين يوماً استطاع أن يدخلها ويستولى عليها بعد أن قضى على الصليبيين بها .

وكانت الرها هى أول إمارة صليبية تقوم على أرض الشرق العربى الإسلامى . ویشاء القدر أن تكون هى أول إمارة تتحرر، وكان سقوطها صدمة نفسية مؤلمة وعنيفة للصلبيين، ترددت أصداؤها فى كل مكان، إذ كانت المدينة ترتبط بتراث المسيحية الباكر، كما أن سقوطها بعد ما يقرب من خمسين عاماً من استيلاء الصليبيين عليها كان نذير شوم بالنسبة لهم .

وكان القدر كان على موعد مع «عماد الدين زنكى»، فبعد عامين من تحريره إمارة الرها، وبالتحديد سنة ١١٤٦م / ٥٤١هـ قتل غيلة على يد أحد غلمانه . ويعتبر اغتياله لغزاً كبيراً محيراً، سيما وأنه ظل يحكم الموصل نحو عشرين عاماً متصلة دون أن يتعرض لمحاولة اغتيال واحدة .

هذا وقد خلف «نور الدين محمود» أباه «عماد الدين زنكى» فى إمارة الموصل، ولم يستكن عن مواصلة هدف توحيد الإمارات الإسلامية فى المشرق للقضاء على الكيان الصليبي وتحرير بيت المقدس .

الحملة الصليبية الثانية

أحدث سقوط إمارة الرها وتحريرها على يد «عماد الدين زنكي» زلزالاً كبيراً في أوروبا. وفي الشرق - حيث مستوطنات الصليبيين - كان الإحساس بالهزيمة مريراً، فذهب وفد من فرنج الشرق إلى بلاد البابا «ايجنْيوس» الثالث، بعد أن اعتلى العرش البابوي بوقت قصير، كما ذهب وفد آخر من الأرمن يستنهض همم البابويه وملوك الغرب لمحاولة استرداد الرها التي ضاعت منهم.

ونتيجة لتلك المساعي تجمع جيش فرنسي كبير قوامه سبعون ألفاً على رأسه لويس السابع ملك فرنسا، وتجمع جيش الماني قوامه سبعون ألفاً أيضاً على رأسه امبراطور المانيا «كونراد» الثالث.

واتخذ الجيشان طريقين مختلفين للوصول إلى المشرق العربي، فالجيش الألماني اتخذ طريق البحر، ورسّت سفنه على شواطئ آسيا الصغرى، ثم عبر اليوسفور، وعلى أرض السلاجقة هاجمه المسلمون وأجبروا قسماً كبيراً منه على العودة، واضطر الامبراطور الألماني كونراد الثالث إلى التخفى واستطاع أن يفلت من حصار السلاجقة ويصل إلى بيت المقدس.

أما الجيش الفرنسي فسار بطريق البر حتى وصل إلى القسطنطينية وهناك عرف أن حشوداً إسلامية كبيرة تنتظره في إمارة الرها، فالتف حولها، متجنباً الصدام مع تلك الحشود، وفضل التقدم نحو بيت المقدس.

وفي بيت المقدس اتفق كل من الملك الفرنسي والإمبراطور الألماني مع «بلدوين» الثالث ملك بيت المقدس على الزحف نحو دمشق واحتلالها - على الرغم من أنه كان هناك حلفاء معقوداً في ذلك الوقت بين أمير دمشق «معين الدين» وبين الصليبيين على ألا يهاجموا دمشق نظير جزية سنوية يدفعها لهم.

وهكذا حاصر الصليبيون مدينة دمشق، التي كانت بالغة القوة والتحصين، وفي نفس الوقت سارعت قوات إسلامية كثيرة لإنقاذ دمشق وفك الحصار المضروب حولها، مما اضطر الجيوش الصليبية إلى التقهقر والإنسحاب ليتفادوا معركة دموية كبرى لم تكن في حيلاتهم.

وهكذا فشلت الحملة الصليبية الثانية التي كان هدفها استرداد إمارة الرها، وانسحبت جيوش الصليبيين إلى أوروبا وهي تشعر بمرارة الخزي والهزيمة.

هذا وقد استغرقت أحداث الحملة الصليبية الثانية الفترة من أواخر سنة

١١٤٧م / ٥٣٢هـ إلى أواخر سنة ١١٤٩م / ٥٣٤هـ.

الأوضاع بعد الحملة الصليبية الثانية ومقدمات معركة حطين وحرير بيت المقدس

كان من نتائج فشل الحملة الصليبية الثانية، أن خضعت مدينة دمشق لسيطرة «نور الدين محمود» وانضمامها إلى جبهة الجهاد ضد الصليبيين، فمثلما كان «معين الدين» حاكم دمشق يمثل عقبة كؤوداً في وجه محاولات «عماد الدين زنكى» المستمرة لتوحيد الجبهة العربية الإسلامية، كان «مجير الدين» الذى خلف أباه معين الدين فى حكم دمشق يمثل نفس العقبة، إلى انكسر الصليبيون وباءت حملتهم الثانية بالفشل.

وبالتحديد سنة ١١٥٤م / ٥٤٩هـ لحج «نور الدين محمود» فى دخول دمشق بناء على رغبة أهلها الذين ستموا ظلم حاكمهم مجير الدين وسياسته المهادنة للصليبيين.

وهكذا توحدت الجبهة الإسلامية تحت قيادة نور الدين محمود، وبسبب تماسك هذه الجبهة والهجمات المستمرة التى كانت تشنها على مستوطنات الصليبيين، اتجهت الانظار نحو مصر، التى كانت آنذاك تعاني ضعفاً سياسياً شديداً، إذ كانت الخلافة الفاطمية فى الطور الأخير من عمرها، عارية إلا من بعض ظلال قوتها السابقة ومجدها الغابر، بعد أن أنهكتها الكوارث الطبيعية والمنازعات الداخلية.

ومنذ وزارة «بدر الدين الجمالى» صار الوزراء فى الدولة الفاطمية أصحاب السلطة الحقيقية وأصبح الخلفاء العوبة بأيديهم، كما توالى جلوسهم على كرسى الحكم فى إيقاع سريع يدل على مدى الاضطراب والتدهور الذى وصل إليه حال الدولة.

لقد كانت الدولة الفاطمية - آنذاك - أشبه بالرجل المريض الذى ينتظر الجميع نهايته حتى ينال كل منهم من إرثه شيئاً، ولما كانت مصر بمواردها البشرية والاقتصادية الكبيرة كفيلاً بترجيح كفة من يستولى عليها أو يضمها إلى جانبته فى الصراع، لذلك أثر كل من نور الدين محمود - رأس القوى العربية والإسلامية -

والصليبيين، عدم انتظار نهاية الدولة الفاطمية ويبادر بوضع ملامح تلك النهاية بيده. لذلك بدأ «بلدوين» الثالث سنة ١١٥٠م / ٥٤٥هـ في إصلاح تحصينات غزة استعداداً للهجوم على مصر، وتمكن سنة ١١٥٣ / ٥٤٨هـ من الاستيلاء على عسقلان.

وبهذا دان الساحل الفلسطيني كله للصليبيين لأول مرة بعد نصف قرن من حملتهم الأولى على المشرق.

وبالاستيلاء على عسقلان تم موازنة الهزائم التي تلقاها الصليبيون في الجبهة الشمالية بالانتصار الذي حققوه ضد الدولة الفاطمية المتهاوية في الجنوب.

وحين مات «بلدوين الثالث» في ١٠ فبراير سنة ١١٦٣م / ٥٥٨هـ كان واضحاً أن سياسته الخارجية التي قامت على أساس غزو مصر لن تتوقف، فسياسة خليفته «أمالريك» الأول أو (عموري) حاكم بيت المقدس كانت في حقيقة أمرها عبارة عن سلسلة متصلة من المحاولات الدؤوبة لفتح مصر، وكانت الظروف تحتم تلك السياسة، إذ أن اتحاد حلب ودمشق تحت راية نور الدين محمود جعل غزو مصر هو الحل الوحيد لنجاة الصليبيين، إذ أدرك «عموري» أن سقوط مصر الفاطمية في يد نور الدين محمود سيجعل الدويلات الصليبية بين شقي رحي.

وهكذا كان كل من: نور الدين محمود وعموري، على أهبة الاستعداد لبدء السباق الذي جائزة القور به: مصر، بمواردها الاقتصادية والبشرية الهائلة.

وأخيراً سنحت الفرصة لتدخل الجانبين، عندما نشب صراع على منصب الوزارة في مصر بين كل من شاور حاكم الصعيد، وضرغام حاجب الخليفة وذلك إيان حكم الخليفة العاضد لدين الله - آخر خلفاء الفاطميين والذين زالت في عهده دولتهم - فوجد الملك الصليبي (عموري) في الفوضى الضاربة في مصر آنذاك فرصة جيدة للهجوم عليها بحجة عدم دفع الجزية التي كانت مقرره على مصر للصليبيين في عهد سلفه بلدوين الثالث.

وفي سنة ١١٦٣م / ٥٥٨هـ، كانت قوات الملك الصليبي تعبر برزخ السويس، ثم تحاصر مدينة بليس. ولكن ضرغام (الذي كان منفرداً بسلطة الحكم آنذاك بعد فرار غريمه شاور ولجؤه إلى نور الدين محمود بالشام) تصدى لهم وقطع جسور

النيل، بحيث شكلت مياه الفيضان وأوحال الدلتا عائقاً رهيباً لهم حال دون تقدمهم وجعلهم يتقهقرون عائدين إلى فلسطين.

فى نفس تلك الأثناء كان «شاوور» قد اتفق مع نور الدين محمود على أن يشن الأخير حملة عسكرية يستعيد بها كرسى الوزارة الذى ضاع منه فى القاهرة، والتزم بأن يتحمل نفقات الحملة وأن يتنازل له عن بعض مناطق الحدود ويعترف له بالسلطة على مصر بجانب سلطته على الشام، ويرسل له سنوياً ثلث الموارد المصرية.

ووجد نور الدين محمود فى عرض «شاوور» الفرصة التى كان يتحينها لضم مصر وتوحيد القوى العربية والإسلامية بشكل كامل ونهائى، فأرسل مع شاوور حملة عسكرية بقيادة أحد قادته الأفاضل وهو «أسد الدين شيركوه» وبرفقته ابن أخيه الشاب ذو السبعة والعشرين عاماً «صلاح الدين الأيوبي» الذى جعلته الأقدار خلفاً لنور الدين محمود فى قيادة الجهاد ضد الصليبيين والانتصار عليهم انتصاراً كبيراً فى «حطين» - كما سيأتى الكلام بتفصيل عنه.

وبالطبع لم تكن أنباء الاتفاق الذى تم بين الوزير الفاطمى وبين نور الدين محمود لتخفى عن «ضرغام» الذى حركته شهوة السلطة والأنانية السياسية، فسارع إلى طلب النجدة من الصليبيين، فتحركت على الفور حملة صليبية بقيادة «عمورى» إلى مصر. وكانت تلك إحدى خمس محاولات حاول فيها هذا الملك الصليبي غزو مصر - خلال ست سنوات متتالية - ولم يفلح فى واحدة منها.

ولقد أعقب محاولات «عمورى» الفاشلة تلك ضد مصر نتيجتين هامتين:

أولاً: تقلص الموارد البشرية والمادية لمملكة بيت المقدس الصليبية.

ثانياً: تغير الخريطة السياسية لصالح القوى العربية والإسلامية بعدما قتل كل من شاوور وضرغام (الوزيرين الفاطميين) فى خضم الصراع، وبعدهما تولى أسد الدين شيركوه كرسى وزارة الخليفة العاضد لدين الله، ثم موت أسد الدين وتولى ابن أخيه صلاح الدين الوزارة، الذى أثبت الأحداث بعد ذلك أنه بطل تلك الحقبة الخرجة فى تاريخ المنطقة العربية، وأن وزارته فى خدمة العاضد (آخر الفاطميين) كانت بمثابة فترة انتقالية أو تمهيدية لتألق لحجة.

فى تلك الاثناء، كانت راية نور الدين محمود ترفرف على دولة متسعة الارزاء فىها خمس عواصم: دمشق، والرها وحلب، والموصل، والقاهرة. وكان نور الدين يلح على صلاح الدين الايوبى فى مصر لاتخاذ الخطوات الحاسمة وإعلان نهاية الخلافة الفاطمية، حتى تعود مصر إلى حظيرة الخلافة العباسية، وكان صلاح الدين يتحين الفرصة، إلى أن واته تلك الفرصة أثناء مرض الخليفة الفاطمى، فاستبدل فى خطبة أول جمعه من سنة ٥٦٧هـ / ١١٧١م اسم الخليفة الفاطمى باسم الخليفة العباسى، وبعد ذلك بأسبوع واحد مات الخليفة الفاطمى دون أن يدري أن دولة آياته وأجداده قد زالت من الوجود، وأن التاريخ قد كتبه فى سجلاته كأختر الفاطميين فى مصر.

وجاء انفراد صلاح الدين الايوبى بالسلطة فى مصر - كما قلنا سابقا، مقدمة لمرحلة حاسمة من مراحل الصراع ضد الصليبيين، إذ أن مصر بمواردها الهائلة وامكانياتها جعلت قامته السياسية أكثر طولاً. ثم جاءت وفاة نور الدين محمود فى شوال سنة ٥٦٩هـ / ١١٧٤م وبعدها موت عدوه اللدود عمورى ملك بيت المقدس فى نفس السنة، فرصة طيبة لكى يوحد الجهود العربية ويؤكد زعامته للعالم الإسلامى.

وكانت الخطوة الضرورية لتأكيد تلك الزعامة تتطلب منه أن يعالج فى حزم وورائة ما نجم عن وفاة نور الدين محمود من منازعات وصراعات.

وبعد عدة تطورات سياسية أعلن صلاح الدين الايوبى نفسه ملكاً على مصر والشام بمباركة الخليفة العباسى سنة ١١٧٥م / ٥٧٠هـ، ثم قضى نحو ست سنوات لترتيب الأوضاع الداخلية فى كل من مصر والشام استعداداً للمواجهة مع الصليبيين، فى الوقت الذى كان حريضاً فيه على تجنب المواجهة معهم على مستوى كبير. فبدأ بالتخلص من السودانين الذين كان الفاطميون يستجلبونهم لحماية دولتهم، وكان عددهم يقترب من الخمسين ألف. كانوا يتآمرون عليه ويسبون كثيراً من القلاقل، فطاردتهم حتى جنوب بلاد النوبة، وهناك أقام حامية مصرية لمراقبتهم ومنعهم من العودة. ثم أرسل شقيقه الأمير «شمس الدين توران شاه» على رأس حملة عسكرية كبيرة إلى اليمن، فتمكن من مد سلطانه ونفوذه

هناك، بعد أن وُحِّد قبائل اليمن على مذهبه ومذهب الخلافة العباسية السني - وكان ذلك في سنة ١١٧٣م / ٥٦٩هـ. بعد ذلك شرع في بناء سور ضخيم حول مدينة القاهرة ليكفل لهما حماية كافية في وجه أي غزو صليبي محتمل. وقد جاء موقع ذلك السور خلف سور القاهرة الذي كان «جواهر الصقلي» قائد «المعز لدين الله» الفاطمي قد بناه، وكان ذلك السور قد تهالك ودُمِّرَت أجزاء كثيرة منه. ودعم صلاح الدين هذا السور الحديد بآبواب عالية سميكة مصفحة بالحديد، بلغ عددها خمسة عشر باباً. وبعد الانتهاء من بناء السور - الذي ما زالت بقاياه موجودة حتى الآن - شرع مهندس إنشاءاته «بهاء الدين قراقوش» في بناء قلعة ضخمة بسفح جبل المقطم ليدير منها دفة الحكم وتساهم كذلك في حماية القاهرة.

في تلك الأثناء التي كان صلاح الدين يرتب فيها البيت قام الصليبيون بعدة غارات عبر شبه جزيرة سيناء، ووصلت قواتهم حتى بحيرات منطقة السويس (البردويل حالياً) كما شنوا غارات أخرى على شبه الجزيرة العربية، وحاول «رينالد دي شاتيون» أمير الكرك (جنوب الأردن) أن يقتحم البحر الأحمر ويغزو مكة والمدينة، لكي يتحكم في حركة التجارة الدولية التي تمر بالبحر الأحمر، كما هاجم بعض موانئ مصر والحجاز، ولكن الإسطول المصري واجهه وسحقه تماماً وورده على أعقابها خائباً.

وهكذا وجد صلاح الدين الأيوبي مبرراً قوياً لبدء عملياته ضد الصليبيين، وكانت قمة انتصاراته على الفرنج في موقعة حطين، الواقعة إلى الغرب من بحيرة طبرية وإلى الشرق من مدينتي عكا وحيفا. وقد جرت تلك الموقعة يوم ٢٤ من شهر ربيع الثاني ٥٨٢هـ / ٤ يولييه سنة ١١٨٧م. وكان من نتائجها أن فقدت مملكة بيت المقدس قواتها العسكرية الرئيسية، صحيح أن كوارث سابقة وقعت للصليبيين في المنطقة العربية، وقتل بعض أمرائهم وأسروا بعضهم الآخر، إلا أن ما حدث لهم في حطين كان أخطر من ذلك بكثير، حيث تمكن جيش المسلمين بقيادة صلاح الدين من إبادة جيش الصليبيين إبادة تامة، ولم يبق منهم حياً إلا مائة وخمسين صليبياً ثم أسروهم جميعاً بما فيهم كبار القادة والأمراء.

وعلى مدى شهرين، بعد حطين، أخذت الجيوش الإسلامية تدخل المدن

والقلاع التي كان يحتلها الصليبيون، حتى لقد بلغ ما تم تحريره منها نحو خمسين موقعاً ما بين مدينة وقرية وقلعة حصينة .

ومع ذلك - ورغم كل هذه الانتصارات الباهرة إلا أن هدف صلاح الدين الأيوبي، وما عاهد المسلمين عليه، كان تحرير بيت المقدس .

ولهذا سار صلاح الدين بجيشه نحو القدس الشريف وحاصرها لمدة أسبوع حتى استسلمت له فدخلها يوم الجمعة ٢٧ رجب سنة ٥٨٣هـ / ٢ أكتوبر ١١٨٧ .

يقول ابن شداد.. في كتابه: سيرة صلاح الدين: لما دخل صلاح الدين القدس بعد أن يسّر الله فتحها أعطى أهلها الأمان في مقابل أن يدفعوا عن كل رجل عشرة دنانير وعن كل امرأة خمسة دنانير وعن كل طفل ديناراً واحداً . وبلغ ما تم جمعه نحو مائتين وعشرين ألف دينار . ومن عجز عن الدفع اعتبر أسيراً . وحرر صلاح الدين ثلاثة آلاف مسلم كانوا أسرى لدى الفرنج .

وقد أردنا أن نورد ما قاله ابن شداد، ليقارن القارئ ما فعله صلاح الدين عندما دخل القدس، بما فعله الصليبيون عندما دخلوها، فهو لم يسفك فيها دماً ولم يزهق روحاً، كما فعلوا حين سفكوا دم عشرة آلاف من أهلها عندما دخلوها، كل ما فعله صلاح الدين، عندما طلبت حاميتها الأمان واستسلمت أن تفرض عليهم غدية رهيدة حتى لا يُعتبروا أسرى .

الحملة الصليبية الثالثة

بعد موقعة حطين لم يتبق بأيدي الصليبيين سوى صور وانطاكية وطرابلس وبعض القلاع والحصون المتناثرة هنا وهناك على أرض الشام.

وبعد ضياع القدس من بين أيديهم، ذهب كبير أساقفة صور في جولة زار فيها بلاط عدد كبير من ملوك وأمراء الغرب الأوروبي لكي يستنجد بهم ويستنهضهم لكي يحملوا على المشرق العربي الإسلامي.

وقام البابا «جريجوري» الثامن - الذي لم يستمر في كرسي البابوية أكثر من شهرين - بإرسال خطاب بابوي «للكل المؤمنين في الغرب»! ذكرهم فيه بأن فقدان الرها قبل أربعين سنة كان يجب أن يكون نذيراً لهم، كما وعدهم بغفران كامل لخطاياهم إذا شاركوا في حملة صليبية جديدة، وفرض صياماً في كل يوم جمعه على مدى خمس سنوات كاملة، والامتناع عن أكل اللحوم في أيام السبت والأربعاء حتى يستردوا بيت المقدس. ولما مات البابا «جريجوري» الثامن واصل خليفته البابا «كليمنت» الثالث مهمة الاتصال بملوك أوروبا وفرض ضريبة مقدارها ١٠٪ على كل دخل وعلى الأملاك المنقولة سماتها: عشور صلاح الدين، لتمويل الحملة الصليبية الجديدة.

واستجاب لدعوة البابا عدد من ملوك أوروبا على رأسهم: الإمبراطور الألماني «فردريك بارباروسا» الأول، و«ريتشارد» الأول ملك إنجلترا والذي كان يلقب بقلب الأسد، و«فيليب» الثاني ملك فرنسا.

وفي ١١ مايو سنة ١١٨٩/٥٨٥ هـ تحركت قوات الإمبراطور الألماني فردريك بارباروسا وسار عبر الطريق البري الذي سارت عليه الحملتين السابقتين، ولكن الإمبراطور لقي حتفه غريقاً في أحد أنهار آسيا الصغرى وذلك في ١٠ يونيو سنة ١١٩٠م/٥٨٦ هـ وكانت تلك خساره فارحة لحقت بالجيش الصليبي قبل أن يصل إلى هدفه، وانتهى أمر الألمان بعد موت إمبراطورهم بالمشاركة الرمزية في تلك الحملة.

أما «ريتشارد» الأول ملك إنجلترا و«فيليب أوغسطس» ملك فرنسا فقد وصلا

بقواتهما إلى صقلية بطريقتين بحريين مختلفين وأمضيا شتاء ١١٩٠ / ١١٩١ م في نزاع حول الأمور الداخلية في صقلية، وبعد ذلك أبحرا تجاه فلسطين حيث وصلا إلى مدينة صور الساحلية - التي كانت ما تزال بأيدي الصليبيين، ثم بدأ مسيرهما نحو عكا وحاصرت قواتهما المدينة حصاراً طويلاً إمتد نحو عامين إلى أن سقطت في أيديهم سنة ١١٩١ م / ٥٨٧ هـ بعد أن دافع عنها أهلها دفاعاً مستميتاً.

وبعد الاستيلاء على عكا، رحف الصليبيون على ما جاورها من مرواني المسلمين على البحر المتوسط واستولوا عليها.

بعد ذلك دخل الصليبيون في مفاوضات مع صلاح الدين الأيوبي انتهت بعقد صلح الرملة سنة ١١٩٢ م / ٥٨٨ هـ وبمقتضى هذا الصلح خضعت المساحة الواقعة على ساحل البحر المتوسط ما بين مدينتي صور ويافا للنقوذ الصليبي، بينما استمر صلاح الدين وقواته مسيطرين على كافة المناطق الأخرى التي كان المسلمون قد حرروها بما في ذلك القدس مع السماح بحرية التنصاري في زيارة الأماكن المقدسة في المدينة.

وهكذا كان حصار الحملة الصليبية هزلاً بالقدر الذي خيب آمال الأوروبيين والفرنج المقيمين تحت سماء الشرق العربي.

وسرعان ما تحولت الآمال الكبار التي عقدت على هذه الحملة إلى إحباط، واتهامات حادة تبادلها زعماء الصليبيين.

أما صلاح الدين فقد مكث شهوراً قليلة في بيت المقدس ثم اتجه إلى دمشق حيث انتقل إلى جوار ربه في ٢٧ صفر ٥٨٩ هـ / ٤ مارس ١١٩٣ م.

وبوفاة صلاح الدين الأيوبي توارث عن مسرح التاريخ شخصية ظلت ملء العين وموضع الإعجاب والهيبة من جميع معاصريه، أعداء كانوا أم حلفاء.

ولكن الظروف التاريخية التي أنجبت لقيادة الأمة كانت لا تزال قائمة، فالصليبيون كانوا مازالوا موجودين فوق أرض الشام، كما أن خطر قدوم حملات صليبية جديدة كان لا يزال قائماً.

وفي ظل هذه الظروف جاء خلفاء صلاح الدين الأيوبي على غير شاكلته، إذ

أدت وفاته إلى تفسخ دولته في الحال إلى قطع صغيرة يتنازع عليها الورثة من أبناء البيت الأيوبي. وكان التوتر الذي ساد العلاقات بين الورثة الأيوبيين نعمة على بقايا الوجود الصليبي الذي كان يحتل حيزاً ضيقاً من أرض فلسطين ولبنان الحالية، ويمتد بحذاء الساحل من بيروت حتى يافا، وتمتعت مملكة بيت المقدس الوهمية التي صارت عاصمتها عكا، بفترة سلام قاربت العشر سنوات، وهي فترة كانت كافية لأن يلتقط الصليبيون أنفاسهم بعد الأحداث المروعة التي مرت بهم. وكان واضحاً أن قوات الصليبيين في بلاد الشام لم تكن نداً للمسلمين، ومن ثم انعقدت آمالهم على قدوم حملة صليبية جديدة من أوروبا لنجدتهم.

الحملة الصليبية الرابعة

فى السنة التى تولى فيها السلطان «العالء» الأيوبى منصب السلطنة الأيوبية فى القاهرة، أى سنة ١٢٠٠م / ٥٩٦هـ، كانت فكرة الاستيلاء على بيت المقدس وضرب مصر لا تزال تشغل بال الأوربيين .

وحين رأى الصليبيون أن السلطان «العالء» يفرض نوعاً من الوحدة على أبناء البيت الأيوبى خافوا أن يعودوا إلى الموقف المرعب الذى عانوا منه كثيراً على أيام صلاح الدين الأيوبى .

وأدرك البابا والغرب الأوروبى والصليبيون فى الشرق أن الاستيلاء على مصر هو الخطوة المنطقية والضرورية لتأمين وجودهم فى بلاد الشام . وبات غزو مصر حتمياً لضمان استرداد ما حرره صلاح الدين من أراضى مملكة بيت المقدس، بل وبيت المقدس ذاته .

وهكذا أخذ البابا «إنوسنت» الثالث على عاتقه مهمة الدعوة إلى حملة صليبية جديدة يكون هدفها مصر .

وبدأت الاستعدادات لتجميع الحملة الجديدة، بيد أن مشكلة نقل القوات والعتاد الحربى إلى الشواطئ المصرية فرضت على قادة الصليبيين أن يدخلوا فى مفاوضات مع جمهورية البندقية التجارية التى كانت تملك أقوى وأكبر الأساطيل العاملة فى البحر المتوسط . وتمت المفاوضات، وتوجهت جيوش الصليبيين إلى البندقية لكى تنقلهم سفنها إلى شواطئ مصر - كان ذلك سنة ١٢٠١م / ٥٩٧هـ لكنهم بعد سنة من هذا التاريخ كانوا يفرضون حصارهم على القسطنطينية العاصمة المسيحية بدلاً من القاهرة العاصمة الإسلامية . ثم اقتحموها وسلبوها ونهبوها وقتلوا أهلها المسيحيين على مدى ثلاثة أيام مرعبة . ثم أرسوا بها دعائم دولة جديدة تكون بديلاً للامبراطورية البيزنطية وعقدوا مع حاكمها الجديد معاهدة فصلوا بنودها حسب أهوائهم . . وبذلك أو عند هذا الحد انتهت تلك الحملة الصليبية الرابعة بعد أن نسي قادتهم هدفهم الأسمى وهو غزو مصر .

ومع أن البابا «إنوسنت» الثالث أدان انحراف الحملة عن هدفها المحدد لها، إلا

أنه سرعان ما تراجع عن ادائته وابتلع احتجاجه حين رأى إن سقوط القسطنطينية عاصمة البيزنطيين تحت سنايك الخيول الصليبية (الأوروبية الغربية) يمكن أن يحقق أمل البابوية القديم فى السيطرة على الكنيسة البيزنطية واخضاعها لسلطة البابا وكنيسته فى الفاتيكان.

إلا أن بعض الصليبيين الذين لم يوافقوا على الإغارة على العاصمة البيزنطية وتغيير هدف الحملة، واصلوا مسيرهم حتى شواطئ الشام، وهناك تعاونوا مع الصليبيين المستوطنين وشنوا هجوماً هزئياً على مدينة رشيد المصرية ومدينة فوه القريبة منها، ولم يتجاوز هجومهم ذاك أكثر من خمسة أيام، عادوا بعده خائبين إلى عكا، كان ذلك سنة ١٢٠٤م / ٦٠٠هـ.

وفى عكا سرعان ما أدرك الصليبيون استحالة قدوم حملة صليبية أخرى لنجدتهم، ومن ثم سعى ملك عكا لعقد هدنة مع السلطان العادل الأيوبي الذى رحب بعقدها، على اعتبار أن الهدنة والسلم الذى يسود رمنها سيجعل التجارة تزدهر ويتحقق من ورائها مكاسب كثيرة، كما أن الهدنة ستتمكنه من القضاء على متاعبه الداخلية ونزاعه مع بقية الأيوبيين.

وهكذا عقدت الهدنة لمدة ست سنوات إبتداء من آخر سنة ١٢٠٤م / ٦٠٠هـ.

وإذا كان المؤرخين الغربيين لا يعتبرون تلك الحملة الرابعة ضمن الحملات أو الحروب الصليبية، إلا أننا نعتبرها كذلك ارتباطاً بالهدف الذى خرج من أجله الصليبيين وهو غزو مصر.

حملة الأطفال الصليبية

من وسط الجو المشحون بالمواقف الدينية والذي كان يسود غرب أوروبا، وبعد الحملة الصليبية الرابعة التي باءت بالفشل الذريع، خرج صبي فرنسى فى الثانية عشرة من عمره اسمه «ستيفن» من مدينة كلوى الصغيرة فى اقليم أوليانز، وظهر هذا الصبي أمام بلاط الملك الفرنسى «فيليب أوغسطس» فى سان دونى ومعه خطاب، وقال إن المسيح شخصياً أعطاه له لكى يوصله للملك، ورسم «ستيفن» أن العناية الإلهية اختارته لقيادة حملة من الأطفال ليستردوا مدينة القدس، بعد أن فشل الملوك والأمراء والبابا وكل الكبار فى استعادتها بسبب ذنوبهم وآثامهم.

واجتذب «ستيفن» بضع مئات من الأطفال من باريس ومن غيرها من أقاليم فرنسا، وتجمع حول المركب عدد من صغار القساوسة. وسار مركب حملة الأطفال الصليبية حتى مرسيليا فى انتظار أن ينشق البحر أمامهم بمعجزة كتلك التى حدثت لنبي اليهود موسى عليه السلام. ثم جاءت سفن ونقلت عدداً كبيراً منهم إلى جهة مجهولة.

ويبدو أن أطفال ألمانيا أحسوا بالغيرة حين وصلت أنباء حملة «ستيفن» إلى حوض الراين، فخرجت من ألمانيا بعد أسابيع قليلة من رحيل ستيفن حملة أطفال أخرى يقودها صبي اسمه «نيقولا».

وانطلق مركبهم العجيب من مدينة «كولون» وسار عبر جبال الألب فى إيطاليا، وهناك انقسم إلى قسمين: قسم ركب السفن من ميناء بيزا، والقسم الآخر وصل إلى ميناء برنديزى. وعلى أرض إيطاليا تخلفت أعداد كبيرة من أولئك الأطفال بسبب الجوع والبرد أو الخوف من ركوب البحر. أما الذين رحلوا بالفعل فإن أحداً لم يعرف أبداً ماذا جرى لهم على وجه اليقين.

الحملة الصليبية الخامسة

لم تمنع حملة الأطفال بالطبع دون أعداد حملة صليبية جديدة ضد مصر، بل ربما كانت حافزاً لها.

والذى طلب تلك الحملة هذه المرة وكان مُلحاً فى طلبه: «يوحنا برين» الذى تزوج «ماريا» وريثة مملكة عكا، وصار ملكاً على الصليبيين فى فلسطين وذلك سنة ١٢١٠م/ ٦٠٧هـ.

واستجاب لطلبه بالطبع البابا «انوسنت الثالث» فأخذ يدعو لحملة صليبية جديدة فى أنحاء الغرب الأوروبى، ولكنه مات سنة ١٢١٦م/ ٦١٣هـ قبل أن تتجمع تلك الحملة. وخلفه على العرش البابوى «هونوريوس الثالث» ليواصل نفس المسعى والهدف.

كان هدف تلك الحملة مصر، وكانت هناك أسباب عديدة تجعل الصليبيين يقررون النزول بقواتهم فى دلتا النيل بدلاً من ساحل فلسطين. أولها رغبة المدن التجارية الإيطالية (الممول الرئيسى للحملة) فى السيطرة على تجارة المتوسط، وضرب المنافسة المصرية فى عقر دارها بالسيطرة على ميناء دمياط، أهم موانئ شرق المتوسط آنذاك، وثانى هذه الأسباب عسكرى، وهو أن هزيمة مصر، أو تحييدها على الأقل، خير ضمان لبقاء المستوطنات الصليبية فى أمان. وهناك بالإضافة إلى ذلك سبب نفسى أو معنوى، وهو استرداد الشرف العسكرى الذى تلطخ فى وحل «حطين» على يد «صلاح الدين».

بدأت قوات تلك الحملة فى الوصول تباعاً إلى عكا، وفى أوائل نوفمبر سنة ١٢١٧م. ٦١٤هـ خرج الصليبيون من عكا لكى يشنوا هجوماً مباغتاً ضد مصر فى جيش ضخّم لم تشهد بلاد الشام مثله منذ الحملة الصليبية الثالثة. إلا أن فوزى القيادة فى الجيش الصليبي الضخم جعلته عاجزاً عن القيام بأية عمليات عسكرية حقيقية، وسرعان ما عاد الجيش إلى أسوار عكا لكى يحتوى بها، وظل هادئاً حتى إبريل سنة ١٢١٨م/ ٦١٥هـ، حين وفدت قوات صليبية جديدة من أوروبا. فقرر مجلس الحرب الصليبي الذى اجتمع فى عكا مهاجمة دمياط على دلتا النيل، وعند

نهاية شهر مايو سنة ١٢١٨م / ٦١٥هـ وصلت القوات الصليبية إلى ساحل دمياط على البحر المتوسط. وخرج «الكامل» أكبر أبناء الملك «العادل» الأيوبي وولى عهده للدفاع عن دمياط ضد الصليبيين الذين كانوا قد أقاموا معسكراً لهم على الشاطئ الغربى للنيل وأحاطوه بخندق يمنع المصريين من الوصول إليهم. وظل الوضع متجمداً قرابة أربعة شهور حتى إمتلك الصليبيون برج السلسلة على الشاطئ الدمياطى. وبدأ المصريون يقاتلونهم فى البر وفى النيل، إلى أن توفي الملك «العادل» فى جمادى الآخرة ١٢١٨م / ٦١٥هـ، وعاد «الكامل» من دمياط ليواجه فى القاهرة مؤامرة انقلاب دبرها أحد الأمراء ضده. وتفرقت جموع المدافعين عن دمياط فسقطت بأيدي الصليبيين فى ٢٧ شعبان سنة ٦١٦هـ - ٥ نوفمبر سنة ١٢١٩م.

وجدير بالذكر أنه قبل سقوط المدينة، وفى أثناء حصارها، كان السلطان الكامل قد انتابه اليأس من امكانية صمود دمياط، فأرسل يفاوض الصليبيين للجلء عن مصر فى مقابل تنازله عن بيت المقدس - الذى كان ضمن حدود دولة الأيوبيين آنذاك - ويأخذوا وسط فلسطين والجليل، ويدفع لهم جزية عن الحصون التى تبقى بأيدي المصريين، ورغم أن العرض الذى عرضه الملك الكامل الأيوبي كان سخياً، إلا أن المندوب البابوى - المرافق للحملة - وقادة الحملة المتغترسين الذين كانوا يريدون القاهرة بعد دمياط، بالإضافة إلى التجار الإيطاليين الذين كانوا المصدر الأساسى لتمويل الحملة وكانوا يريدون الاستيلاء على دمياط لتكون مركزاً تجارياً لهم إلى جانب مراكزهم التجارية المنتشرة فى البحر المتوسط. كل هؤلاء رفضوا ما عرضه الملك الكامل، وواحد فقط من بينهم كان يقبل عرض الملك الكامل ويرغب فى التفاوض هو «يوحنا برين» ملك الصليبيين فى فلسطين.

وعلى مدى ثمانية عشر شهراً كاملة، جمّد الصليبيون نشاطهم فى دمياط حتى وصلت قوات إضافية من أوروبا ومن عكا، فبدأوا يزحفون جنوباً حتى مدينة فارسكور - وذلك فى منتصف شهر يولية سنة ١٢٢١م / ٦١٨هـ وهو وقت فيضان النيل السنوى الذى يشتد فى شهر أغسطس - وزحفت قوات الجيش المصرى لكى تحاصر الصليبيين قرب المنزلة. ثم بدأ فيضان النيل وفتحت الجسور فأغرقت كل

الطرق أمام الجيش الصليبي المحاصر. وعلى صفحة نهر النيل كانت سفن البحرية المصرية تستولى على سفن العدو ومعداته الحربية، وتقتل وتأسر ما لا حصر له من الصليبيين الذين اضطروا إلى التفقهق والانسحاب إلى دمياط ومنها عادوا إلى عكا.

وهكذا غرقت أحلام الصليبيين بالاستيلاء على مصر في أوجال الدنيا ووسط أمواج النيل الهادئة، ودخلت القوات المصرية دمياط بعد أن دحرت آخر الصليبيين بها في التاسع من شهر رجب سنة ٦١٨هـ / سبتمبر ١٢٢١م.

الحملة الصليبية السادسة

كانت الحملة ضد دمياط آخر محاولات البابوية لتوجيه حملة صليبية تحت قيادتها فقط ولحسابها منفردة.

ومن ناحية أخرى فإن الحملات الصليبية فى القرن الثالث عشر الميلادى اتخذت طابعاً مختلفاً عن حملات القرن السابق عليه . فالحملة الثانية كانت قد جاءت رد فعل لسقوط إمارة الرها سنة ١١٤٤م / ٥٤٧هـ على يد «عماد الدين زنكى» ، كما أن الحملة الثالثة كانت استجابة للكارثة التى حاقت بالصليبيين بعد معركة حطين وسقوط بيت المقدس سنة ١١٨٧م / ٥٩٠هـ على يد «صلاح الدين الأيوبي» .

أما حملات القرن الثالث عشر فكانت نتيجة الضعف الدائم الذى ألم بالمستوطنات الصليبية التى ورعت فى المشرق ، ولم تبرأ منه منذ عمليات «صلاح الدين الأيوبي» ، على الرغم من أن فرنج المشرق لم يواجهوا أى خطر حقيقى طوال الفترة الأيوبية من بعد صلاح الدين .

وعلى الرغم من أن شواطئ فلسطين شهدت فى هذا القرن (الثالث عشر) موجات متلاحقة من الفرسان والمغامرين وشواذ الآفاق والباحثين عن الفرص تحت راية الصليب ، وعلى الرغم من أن بعض هذه الموجات كانت تضم فيالق من الفرسان والمحاربين الأشداء ، وبعضها كان أقرب إلى الرذاذ الخفيف ، إلا أن هذا المدد المتواصل لم يستطع أن يقدم شيئاً للكيان الصليبي فى المشرق ، والذى كان يعضى إلى نهايته المحتومة .

ولأن فشل حملة دمياط كان فى النهاية ضربة موجعة لهيئة البابوية ، فقد أخذ البلاط البابوى يضغط بشدة من أجل شن حملة صليبية جديدة . وكان المرشح لقيادة تلك الحملة هو الامبراطور الألمانى «فردريك الثانى» ، وهذا الفردريك (الذى كان معروفاً باسم «عجوبة الدنيا») لم يكن صليبياً مثل غيره من ملوك أوروبا الذين قادوا الحملات الصليبية السابقة ، فقد ولد وترعرع فى صقلية فى ظل مظاهر الحضارة العربية الإسلامية التى كانت مزدهرة آنذاك فى تلك الجزيرة ولم يكن

الإسلام بالنسبة له مجرد كتاب أو (قرآن)، كما أن المسلمين لم يكونوا مجرد قوم من الكفار يستحقون الموت - كما هو المفهوم السائد لدى الأوروبيين حينذاك - فقد كان ذلك الامبراطور يكن للمسلمين ودينهم وحضارتهم تقديراً كبيراً، وكان واسع العلم غزير المعرفة يجيد من لغات الدنيا آنذاك ست لغات: العربية واليونانية واللاتينية والإيطالية والألمانية والفرنسية.

ولكن كيف يكون امبراطور هذا حاله، على رأس حملة صليبية جديدة؟

فى الواقع إن فردريك الثانى، لما تولى العرش سنة ١٢١٥م / ٦١٨هـ، أخذ شارة الصليب (أو رمز قيادة الصليبيين) من البابا «انوسنت الثالث» لكى يضمن تأييده له فى عرش الامبراطورية الذى لا يخلو من صراعات ومؤامرات تُحاك حوله. كما أن رواجه من يولادنا ابنة الملك الصليبي الراحل «يوحنا برين» ملك الصليبيين فى فلسطين جعله ملكاً على بيت المقدس ومثولاً عن صليبي الشرق، إلا أنه كان عارفاً عن القيام بحملة صليبية، لأن كان يطمح إلى بسط نفوذه على كل إيطاليا بما فيها أملاك البابوية ومدن الشمال التجارية الغنية، ولذلك كان يماطل فى الرضاء بنذره الصليبي رغم استلامه لشارة الصليب من البابا.

وكانت هناك مراسلات بين الامبراطور (اعجوبة الدنيا) وبين السلطان الكامل الأيوبي -

وأخيراً قَدِمَ الامبراطور إلى فلسطين سنة ١٢٢٨م / ٦٢٥هـ ومعه جيش صغير لا يتجاوز عدده ٦٠٠ فارس نقلهم أسطول هزيل. وكان مشهداً درامياً غريباً، ذلك الذى جرى على مسرح التاريخ آنذاك، إذ دعا البابا الغاضب من سلوك الامبراطور أعجوبة الزمان، إلى شن حرب ضده، بعد أن وقع عليه عقوبة الحرمان الكنسى، بينما كان الامبراطور فى فلسطين يؤدى واجبه الصليبي! وكانت أهم نتائج هذه الحملة العجيبة، التى تجنب القتال وإراقة الدماء، أن عُقدت هدنة مدتها عشر سنوات بين الكامل الأيوبي وفردريك الثانى، على أساس أن يتسلم الامبراطور مدينة القدس وبيت لحم، وشريطاً من الأرض يصل بين عكا والقدس. ويبقى فى حوزة المسلمين المسجد الأقصى وقبة الصخرة والمناطق الريفية، وفى المقابل يتعهد فردريك بمنع أى حملة صليبية من أوروبا طوال فترة العشر سنوات.

وبعد أن تزوج فردريك الثانى ملكاً على مملكة بيت المقدس الصليبية وعاصمتها القدس (بدلاً من عكا) عاد إلى أوروبا فى يونيو ١٢٢٩م/٦٢٦هـ بمكاسب لم تستطع أى حملة أخرى قبله أن تحققهما منذ حملة الصليبيين الأولى فى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى.

أما العالم الإسلامى فقد رأى - بحق - أن تلك الهدنة التى عقدها الكامل الأيوبي كارثة حقيقية. وكان رد الفعل الشعبى عنيفاً ضد السلطان، الذى بعث بسفرائه إلى كل مكان فى العالم الإسلامى ليبرر فعلته النكراء واتفاقه المشين.

الحملة الصليبية السابعة

أتاحت فترة هدنة العشر سنوات التي عقدها الكامل الأيوبي مع الامبراطور فردريك فرصة جيدة للصليبيين وزعماء الغرب الأوروبي لكي يستعدوا لجولة عسكرية جديدة ضد المسلمين.

وفي سنة ١٢٣٩م / ٦٣٥هـ مات السلطان الكامل، وبعد عدة تقلبات في الأحوال السياسية والصراع على العرش بين الأيوبيين في الشام ومصر، تولى ابنه الصالح نجم الدين أيوب السلطنة سنة ١٢٤٠م / ٦٣٦هـ.

وكان البابا جريجورى التاسع يستعد لهذا الموقف منذ صيف سنة ١٢٣٩م / ٦٣٥هـ، ولم تلق جهوده المستمرة للتحريض على شن حملة صليبية جديدة استجابة كبيرة سوى في فرنسا، حيث تجمع عدد من نبلائها تحت زعامة تيبالد الشامباني، ملك نافر، وبعد رحلة عاصفة في البحر المتوسط وصلت هذه الحملة إلى عكا في أول سبتمبر من سنة ١٢٣٩م / ٦٣٥هـ، وفي غضون أسابيع قليلة تجمع جيش قوامه حوالى ألف فارس صليبي. وفي نوفمبر من السنة نفسها التقى هذا الجيش مع الجيش المصرى عند قرية صغيرة بين عسقلان وغزة، ودارت بينهما معركة قاسية كانت الهزيمة فيها من نصيب الصليبيين الذين تفرقوا بين قتيل وأسير.

بعد تلك المعركة تمكن الصالح نجم الدين أيوب من استعادة بيت المقدس وذلك سنة ١٢٤٤م / ٦٤٢هـ. وكانت تلك هى الاستعادة الأخيرة لبيت المقدس الذى ظل بيد المسلمين والعرب بعد ذلك حوالى سبعة قرون قبل أن يدخلها جيش أوروبى آخر، وقبل أن يحتلها الصهاينة.

الحملة الصليبية الثامنة

سنة ١٢٤٩م / ٦٤٧هـ تواترت الأنباء عن قرب قدوم حملة جديدة ضد مصر بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا.

وعلى وجه السرعة عاد الملك الصالح من الشام إلى مصر، لكي ينظم وسائل دفاعه ويستعد للمواجهة مع الصليبيين.

وتروى مصادر التاريخ العربية أن الامبراطور فردريك الثاني - صديق الأيوبيين وعدو البابا اللدود، قد أرسل أحد رجاله متخفياً في رى تاجر إلى الملك الصالح الذي كان مريضاً بدمشق يخبره بالاستعدادات الأوروبية لشن حرب جديدة على مصر.

وفي خريف سنة ١٢٤٨م / ٦٤٦هـ أبحر الأسطول الصليبي من ميناء مرسيليا الفرنسي إلى قبرص حيث أمضى لويس التاسع فترة من الوقت في انتظار تكامل قواته. وفي مايو سنة ١٢٤٩م / ٦٤٧هـ أقلعت السفن تجاه الشواطئ المصرية. وفي العشرين من شهر صفر سنة ٦٤٧هـ / ٤ يونية ١٢٤٩م نزل الصليبيون قبالة دمياط، وأمامهم لويس التاسع يخوض مياه البحر الضحلة على الشاطئ، وهو يرفع سيفه ودرعه فوق رأسه، وانسحب المدافعون عن المدينة بسرعة بعد أن ظنوا أن ملكهم المريض قد مات، وفي أعقاب الجنود والفرسان المدافعون عن المدينة فر السكان المذعورين، وهكذا سقطت دمياط دون قتال.

دمياط التي دوخت من قبل قوات الحملة الصليبية الخامسة بمقاومتها الشرسة. وما أن تأكد الصليبيون من حقيقة النصر السهل الذي حققوه دون قتال حتى أخذوا يدعمون وجودهم في المدينة الأسيرة.

واستقبل السلطان المريض أنباء سقوط المدينة التي بذل جهداً مضنياً في تحصينها بمزيج من الألم والمرارة، وأعدم عدداً من الفرسان الذين هربوا من دمياط، ونقل معسكره إلى مدينة المنصورة التي كانت قد خرجت إلى الوجود قبل ثلاثين سنة فقط. ومن هناك بدأت حرب عصابات ساهم فيها المصريون جميعاً،

وكثرت أعداد الأسرى الصليبيين الذين كانت تتخطفهم أيادى المجاهدين، وتعددت مواكب الأسرى فى شوارع القاهرة. ثم جاءت قوات عربية أخرى من بلاد الشام لمساندة المصريين. وفى خضم هذه الأحداث توفى الملك الصالح نجم الدين أيوب فى يوم الاثنين ١٤ شعبان سنة ٦٤٧هـ / ٢٠ نوفمبر ١٢٤٩م، وأخفت زوجته «شجرة الدر» نبأ وفاته لئلا تتأثر معتويات المجاهدين، وأرسلت تستدعى على عجل ابنه «توران شاه» من إمارته بالشام.

واشتدت المقاومة المصرية ضد القوات الصليبية التى كانت تتقدم نحو مدينة المنصورة، لكن كان بانتظارهم الأمير «بيرس البندقدارى» - أحد عماليك الصالح نجم الدين الأيوبي وأحد قواده الأفاضل والذى صار فيما بعد السلطان الظاهر بيبرس - الذى نظم الدفاع عن مدينة المنصورة بشكل جيد، وأخيراً انقشع غبار المعارك عن عدد كبير من القتلى الصليبيين، من بينهم عدد من النبلاء، ولم ينجح فى الهرب سوى عدد قليل من الفرسان هربوا على أقدامهم تجاه النيل ليلقوا حتفهم غرقاً فى مياهه.

أما الجيش الصليبي الرئيسى بقيادة الملك لويس التاسع، فكان لا يزال فى الطريق إلى المنصورة، ولا يعلم مصير الطليعة الصليبية التى أرسلها لاقتحامها.

وفى المحرم من سنة ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م دارت رحى معركة رهبة بالقرب من فارسكور كان نتيجتها القضاء التام على الجيش الصليبي، وأسر لويس التاسع نفسه، الذى تم نقله مكبلاً بالحديد إلى دار القاضى ابن لقمان بالمنصورة، حيث بقى سجيناً به فترة من الزمان حتى أفرج عنه لقاء فدية قدرها ٢٠٠ ألف دينار، وبعد أن أقسم ألا يعادود الهجوم على مصر.

وقد قتل فى تلك الحملة وحدها من الفرنسيين حوالى خمسين ألفاً.

وأخيراً رحل لويس التاسع بعد الفشل الذريع لحملة، ولكنه بدلاً من أن يعود لبلاده فرنسا، رحل إلى فلسطين ومكث فى عكا أربع سنوات يحاول أن يجمع جيشاً صليبياً جديداً يرد به شرفه المهان فى المنصورة، ولما فشل فى مساعاه عاد خائباً ذليلاً إلى بلاده وذلك سنة ٦٥٢هـ / ١٢٥٤م.

حملة لويس التاسع على تونس أو آخر الحملات

رغم الهزيمة المريعة التي تلقاها لويس التاسع على أيدي المصريين في المنصورة، وما أصابه من خيبة أمل على يد الأمير «بيبرس البندقدراي» أبرز حكام دولة المماليك الفتية التي نشأت على انقراض الدولة الأيوبية بعد موت الصالح نجم الدين أيوب، فقد ظل يحلم بحملة صليبية جديدة.

لكنه شعر هذه المرة بأنه لن يستطيع مواجهة المماليك ودولتهم الفتية الناشئة فتوجه بحلمه إلى تونس متصوراً أنه يستطيع غزوها والاستيلاء عليها دون عناء أو مشقة، وبالفعل جهّز حملة صليبية جديدة واتجه نحو تونس سنة ٦٦٨هـ / ١٢٧٠م بعد أن أيده في مسعاه أخوه «شارل إنجو» ملك صقلية، وعندما رست سفنه أمام شاطئ قرطاجنة، وجد أنه سيواجه قوات شديدة البأس من الأعراب إلى جانب جيش السلطان المستنصر سلطان الحفصيين، ولم يكد يمشى على وصوله إلى تونس أيام قليلة حتى أصابته حمى ومات، فعاد جيشه برفاته إلى فرنسا.

الفصل الثالث

تصفية الوجود الصليبي في الشام والمشرق العربي

موت لويس التاسع في تونس، وبعد فشل حملته الصليبية على مصر، انتهت فعليا الحملات الصليبية، وبعد قيام دولة المماليك القوية في مصر اتجهت جهود سلاطينهم نحو القضاء على بقايا الامارات الصليبية على سواحل الشام.

فبعدها تبت السلطان «الظاهر بيبرس» ملكه على مصر والشام سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م، اجتهد في إنشاء قوة بحرية كبيرة جعل مركزها في كل من دمياط والاسكندرية (تلك القوة البحرية التي كان يفقدها المسلمون وكانت نقطة ضعفهم، ونقطة قوة الصليبيين في نفس الوقت). فعني لوجود صليبي في مصر وليس في الشام.

ثم استعد للتوجه إلى الشام والاستيلاء على ما يمكن الاستيلاء عليه من حصون ومراكز الصليبيين التي كانت ما تزال باقية في بلاد الشام فتمكن من الاستيلاء على قيصرية ثم أرسوف في سنتي ٦٦٣هـ/ ١٢٦٥م و٦٦٤هـ/ ١٢٦٦م، ثم استولى على صفد التي كانت مركزا لأعمال العدوان الصليبية على بلاد المسلمين. وسببت انتصارات بيبرس هذه الرعب للصليبيين الباقين بالشام، حتى لقد سارعت الملكة «إيزابيلا» ملكة بيروت إلى عقد هدنة مع بيبرس سنة ٦٦٧هـ/ ١٢٦٨م مدتها عشر سنوات.

وفي نفس هذه السنة استولى السلطان بيبرس على يافا ثم استولى على أنطاكية وكل المدن الداخلة في نطاق إمارتها.

وفي سنة ٦٦٩هـ/ ١٢٧٠م هاجم بيبرس إمارة طرابلس، وبدأ بالاستيلاء على بعض حصونها مثل حصن الأكراد وحصن عكا وعندما تولى السلطان المنصور قلاوون سنة ٦٧٨هـ/ ١٢٧٩م، استعاد مدينة اللاذقية سنة ٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م وكانت آخر المعاقل الصليبية التابعة لإمارة أنطاكية، ثم بعد ذلك في سنة ٦٦٨هـ/ ١٢٨٩م استولى على طرابلس، وهي ثالثة الإمارات الصليبية في الشام.

وبعد تولى الأشرف خليل عرش السلطنة المملوكية خلفا لأبيه السلطان قلاوون سنة ٦٨٩هـ/ ١٢٩٠م، وجه همه إلى القضاء على آخر قواعد الصليبيين في الشام، وهي عكا التي كانت تمثل الميناء الرئيس للصليبيين في الشام وموطئ قدمهم على ساحل البحر المتوسط، فزحف نحوها وقرض عليها حصارا لم يدم

أكثر من ثلاث وأربعين يوماً سقطت بعدها، بعد أن ظلت أسيرة في أيدي الصليبيين أكثر من مائة سنة.

وبعد عكا سقطت بقية المدن والمعاقل الصليبية تباعاً، وزالت دولة الصليبيين في فلسطين إلى غير رجعة، اللهم إلا إذا اعتبرنا أنهم رجعوا سنة ١٩٤٨م عندما اقتصب اليهود فلسطين العربية وأعلنوا فيها عن قيام دولتهم إسرائيل، وهذا بالطبع صحيح حيث أن كلاً من الصليبيين الذي وجهوا حملاتهم نحو الشرق العربي الإسلامي، واليهود الصهاينة نوع واحد من الاستعمار الاستيطاني البغيض.

الفصل الرابع

تصفية الوجود الصليبي

في جزائر البحر المتوسط (قبرص ورودس)

رأينا كيف اهتم السلطان الظاهر بيبرس بإنشاء قوة بحرية كبيرة جعل مركزها في دمياط والإسكندرية. وكيف قضى هو ومن بعده السلطان قلاوون وابنه الأشرف خليل على الوجود الصليبي في الشام. ولكن رغم الجهود العظيمة التي بذلوها في تصفية كل قواعد الصليبيين بالشام، إلا أنه كانت هناك قاعدتان صليبيتان تشكلان خطراً على الشرق الإسلامي وتهدد أمن المسلمين، وهما جزيرة قبرص ورودرس المواجهتان لسواحل الشام ومصر في البحر المتوسط. . فجزيرة قبرص كانت دائما المحطة التي تتوقف فيها الحملات الصليبية قبل أن تستكمل مسيرتها نحو الشام أو نحو مصر. وتحولت منذ أن استولى عليها ريتشارد قلب الأسد أحد قادة الحملة الصليبية الثالثة، إلى ملجأ لمقاتلي الصليبيين يلجأون إليه كلما سقطت قاعدة من قواعدهم في الشام. وشيئاً فشيئاً أصبحت الجزيرة وكراً صليبياً تنطلق منه بين الحين والآخر سفنهم للاغارة على شواطئ المسلمين أو لقطع الطريق على سفن المسلمين التي تحمل تجارتهم. وقد حدث سنة ٧٦٦هـ/ ١٣٦٥م أن انطلقت من تلك الجزيرة أكثر من سبعين سفينة تحمل جنوداً من البندقية وجنوا (مدينتان إيطاليتان) ومن قبرص ذاتها، في حملة تستهدف الاغارة على مدينة الاسكندرية وتخريبها. وبعد أن رست تلك السفن أمام شواطئ الاسكندرية اقتحم الجنود الصليبيون المدينة وانطلقوا يقتلون ويذبحون ويروعون وراح ضحيتهم آلاف الأبرياء من النساء والأطفال والشيوخ، وحملوا معهم وهم عائدين حوالى خمسة آلاف أسير من الرجال العزل الذين لم يتمكنوا من الهرب.

حدث هذا في وقت كان أمراء المماليك الذين يحكمون مصر والشام مشغولون بصراعهم على كرسى السلطنة والحكم أكثر من انشغالهم بأمر العدو الذي ما زال يترصد بهم ويتحين الفرصة للاعتداء عليهم. ولعلمهم كانوا في حاجة إلى هذا الدرس القاسى الذى نبههم إلى خطورة ذلك الوكر الصليبي: قبرص وإلى ضرورة القضاء عليه. ولذلك وضع الملك الأشرف بارسباى - وهو آخر العظماء من سلاطين المماليك في دولتهم الثانية (دولة المماليك البرجية) على عاتقه تنفيذ تلك المهمة التى اعتبرها مقدسة، كما اعتبر صلاح الدين الأيوبي من قبله تحرير بيت المقدس مهمة مقدسة ونجح في «حطين» في إنجازها، لذلك قام الأشرف بارسباى ببناء عدد كبير من السفن واعداد المقاتلين والبحارة واستعد لغزو جزيرة

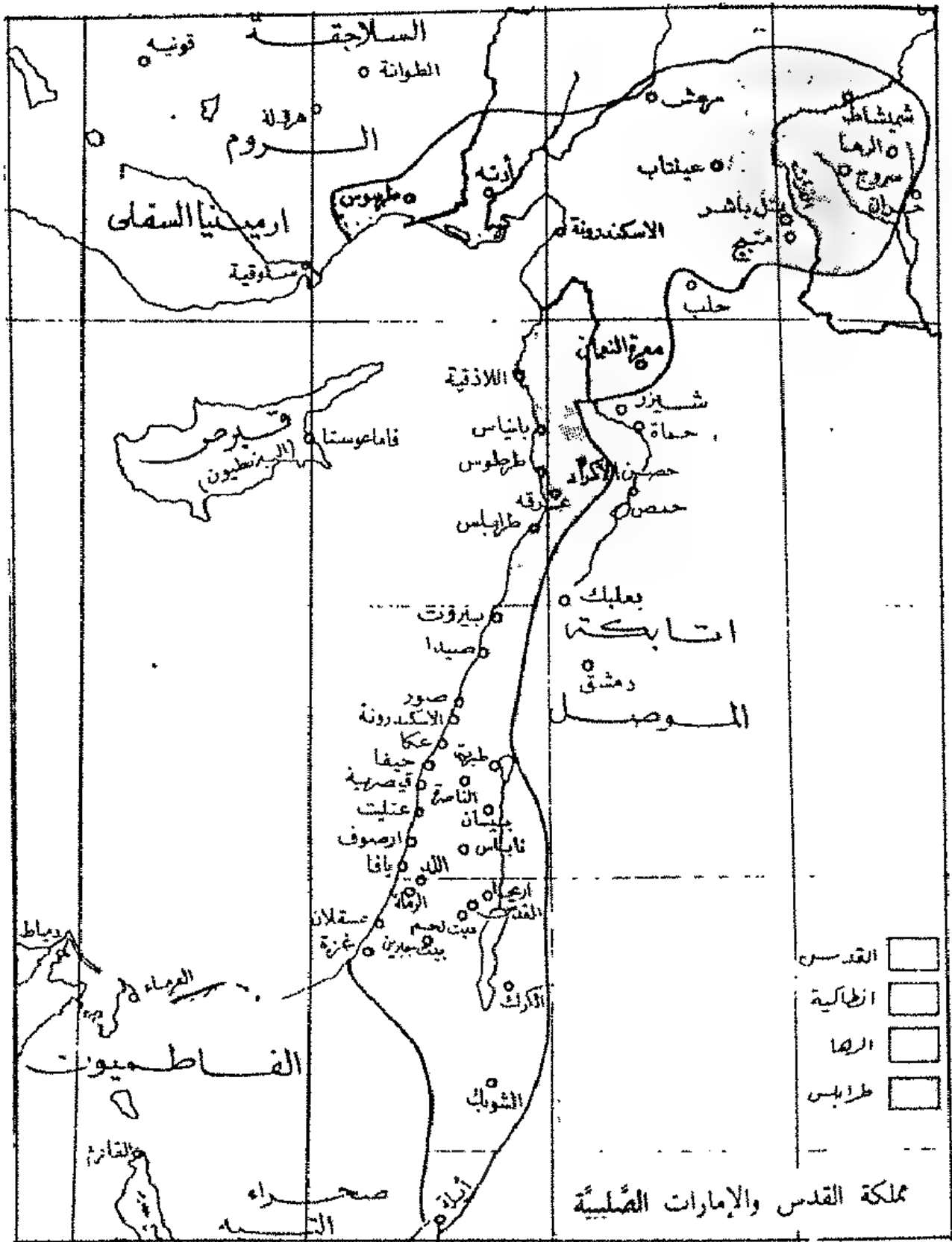
قبرص والاستيلاء عليها، وقد تم له ما أراد بعد ثلاث حملات: الأولى، وكانت تمهيدية سنة ٨٢٧هـ / ١٤٢٤م، أبحرت من دمياط وأغارت على الجزيرة واقتحمت ميناءها «ليماسول» وخرّبته ونهبت ما فيه وأسرت كثيرا من سكانه واستكشفت أوكار القراصنة على ساحل الجزيرة. أما الحملة الثانية فكانت سنة ٨٢٨هـ / ١٤٢٥م، وكانت أكبر من الأولى حيث انضمت إليها في طرابلس - التي اتجهت إليها أولا - كثير من السفن التي صنعت هناك لهذا الغرض، تمكنت تلك الحملة من الاستيلاء على كثير من أراضي الجزيرة والقضاء على اسطولها البحري. ولكنها تراجعت وهي في طريقها إلى العاصمة نيقوسيا بعد أن علم قائدها بأن البندقية (في إيطاليا) قد أرسلت قوة بحرية كبيرة لمعاونة القبرصيين، فاكتمى بما أحرزه من انتصار وقرر العودة إلى مصر محملاً بالغنائم والأسرى. أما الحملة الثالثة والأخيرة والتي استولت على قبرص فكانت سنة ٨٢٩هـ / ١٤٢٦م، وقد هيأ لها الأشرف بارسبای كل سبل ووسائل النصر، أبحرت السفن من الإسكندرية واتجهت رأسا إلى قبرص، وتمكنت من دخول نيقوسيا والسيطرة عليها بعد هزيمة القوات المدافعة عنها وأسر ملكها «جانوس» الذي أقتيد إلى الإسكندرية ضمن من أقتيد من الأسرى، إلى أن اقتدى نفسه بماتى ألف دينار، وهكذا تم القضاء على ذلك الوكر الصليبي.

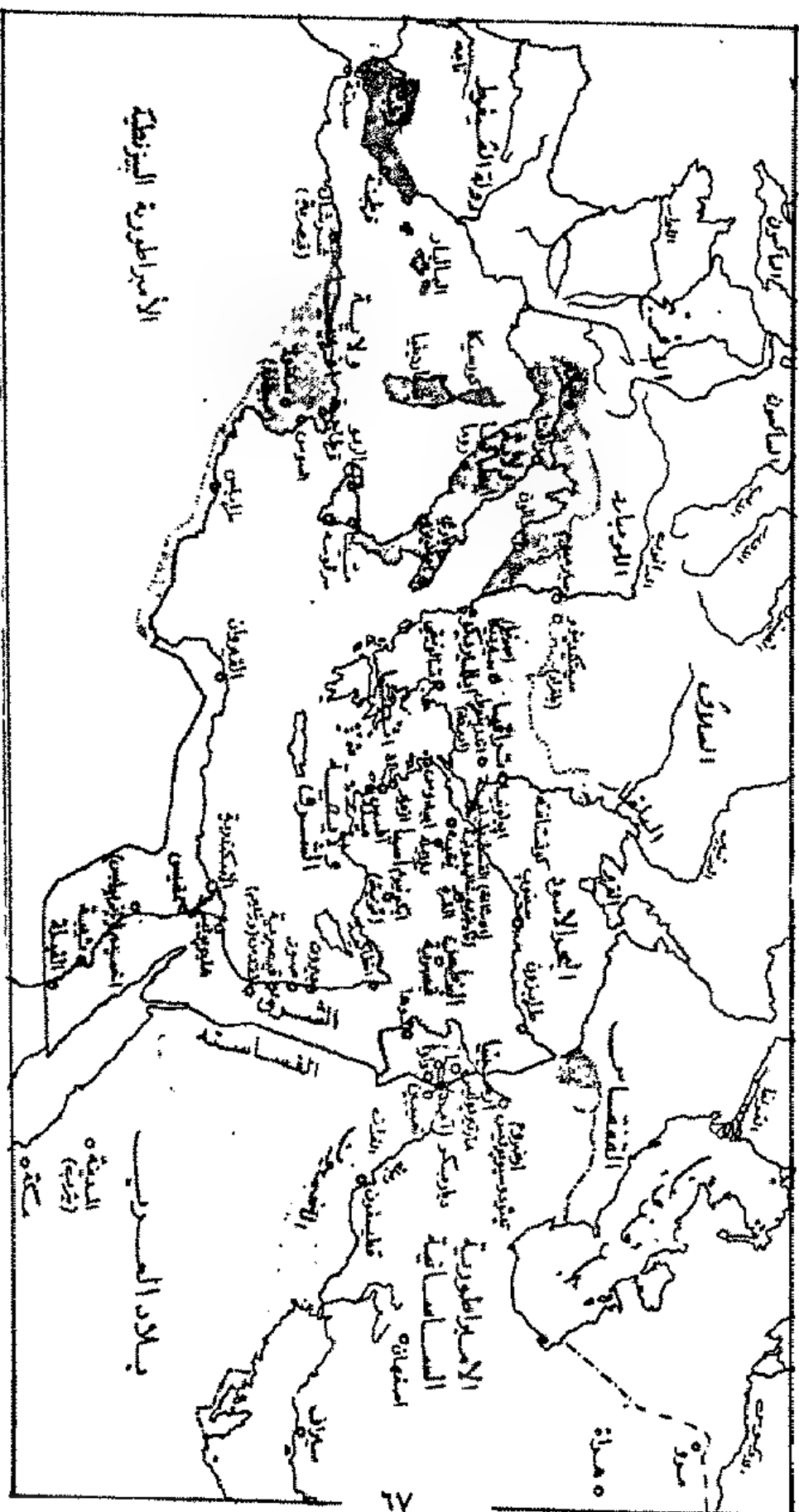
وقد ظلت قبرص تابعة لسلطنة المماليك حتى استولى العثمانيون على مصر سنة ٩٢٢هـ / ١٥١٧م. فانتقلت تبعيتها إليهم، وظلت تابعة لهم حتى تنازل العثمانيون عنها للإنجليز بمقتضى اتفاق مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨م، وظل الإنجليز يحتلونها حتى سلموها لليونان بعد الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٩م. ونشأت منذ ذلك الحين ما سمي «مشكلة قبرص»، لأن الأتراك القبارصة المسلمين المقيمين بالجزيرة ثاروا على الحكم اليوناني بقيادة الزعيم التركي المجاهد رؤوف دنكتاش الذي نجح بمعاونة تركيا في الاستقلال بالجزء الشمالي من الجزيرة. . وما زالت تلك المشكلة قائمة حتى الآن وقابلة للتفجر في أي وقت.

أما جزيرة رودس - أو الوكر الثاني للصليبيين - التي أعلن السلطان بارسبای عن عزمه على الاستيلاء عليها بعد الاستيلاء على قبرص، ولم يعش حتى يحقق

ما عزم عليه، فقد قام خليفته السلطان جقمق بتسيير ثلاث حملات للاستيلاء عليها: الأولى سنة ٨٤٦هـ / ١٤٤٢م والثانية سنة ٨٤٧هـ / ١٤٤٣م، والثالثة سنة ٨٤٨هـ / ١٤٤٤م. ولم توفق الحملات الثلاث في الاستيلاء على الجزيرة، وعقد صلح بين أهل رودس وسلطنة المماليك، إلى أن غزا الاتراك العثمانيون مصر ودخلت مصر بكل أملاكها ضمن الدولة العثمانية، وانتقلت مسئولية فتح رودس إلى الاتراك العثمانيين الذين حاولوا الاستيلاء عليها سنة ٨٨٥هـ / ١٤٨٠م ولم يوفقوا إلى أن تمكن سليمان القانوني سنة ٩٢٨هـ / ١٥٢٢م من الاستيلاء عليها، بعد أن تكبد خسائر فادحة. وظلت الجزيرة تابعة لتركيا إلى أن غزاها الإيطاليون سنة ١٩١٢م واستولوا عليها، ثم أعطيت لليونان بمقتضى معاهدة الصلح التي أعقبت الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٤٧م. وظلت تحكم حكماً عسكرياً محلياً حتى سنة ١٩٥٥م. وهي اليوم إحدى مقاطعات اليونان.







ملحق رقم (١)
الفاطميون في مصر

سنوات الحكم

٩٧٥ - ٩٥٣

٩٩٦ - ٩٧٥

١٠٢١ - ٩٩٦

١٠٣٦ - ١٠٢١

١٠٩٤ - ١٠٣٦

١١٠١ - ١٠٩٤

١١٣٠ - ١١٠١

١١٤٩ - ١١٣٠

١١٥٤ - ١١٤٩

١١٦٠ - ١١٥٤

١١٧١ - ١١٦٠

١- المعز لدين الله .

٢- العزيز بالله .

٣- الحاكم بأمر الله .

٤- الظاهر .

٥- المستنصر بالله .

٦- المستعلى بالله .

٧- الأمر بأحكام الله .

٨- الحافظ لدين الله .

٩- الظاهر بأمر الله .

١٠- الفائز بنصر الله .

١١- العاضد لدين الله .

ملحق رقم (٢)

الدولة الأيوبية

أولاً: الأيوبيون في مصر:

- ١١٧٤ ١- الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب.
- ١١٩٣ ٢- العزيز عثمان بن صلاح الدين.
- ١١٩٨ ٣- المنصور محمد ابن عثمان.
- ١١٩٩ ٤- العادل أحمد ابن أيوب.
- ١٢١٨ ٥- الكامل محمد ابن أحمد.
- ١٢٣٨ ٦- العادل محمد ابن محمد.
- ١٢٤٠ ٧- الصالح نجم الدين أيوب بن محمد.
- ١٢٤٩ ٨- المعظم توران شاه ابن نجم الدين.

ثانياً: الأيوبيون في دمشق:

- ١١٩٣ ١- الأفضل نور الدين علي بن صلاح الدين.
- ١١٩٦ ٢- العادل أحمد ابن أيوب.
- ١٢١٨ ٣- المعظم عيسى بن أحمد.
- ١٢٢٧ ٤- الناصر داود ابن عيسى.
- ١٢٢٩ ٥- الأشرف موسى ابن أحمد.
- ١٢٣٧ ٦- الصالح إسماعيل ابن أحمد. (الفترة الأولى).
- ١٢٣٩-١٢٤٥ (الفترة الثانية).
- ١٢٣٨ ٧- الكامل محمد بن أحمد. (مصر والشام).
- ١٢٣٨ ٨- العادل محمد ابن محمد.
- ١٢٣٩ ٩- الصالح نجم الدين أيوب ابن محمد. الفترة الأولى (مصر والشام) (الفترة الثانية).
- ١٢٤٩-١٢٤٥ ١٠- المعظم توران شاه ابن نجم الدين (مصر والشام).
- ١٢٤٩-١٢٥٠

ثالثاً: الأيوبيون في حلب:

- ١١٨٣ العادل أحمد ابن أيوب.
- ١١٨٦ الظاهر غازي ابن صلاح الدين.
- ١٢١٦ العزيز محمد ابن غازي.
- ١٢٣٦-١٢٦٠ الناصر يوسف بن محمد.

رابعاً: الأيوبيون في حماة:

- ١١٧٨ تقي الدين عمر ابن توران شاه بن أيوب.

١١٩١	المنصور أحمد ابن عمر.
١٢٢٠	الناصر قلج أرسلان بن سليمان
١٢٢٩	المظفر محمود ابن سليمان
١٢٤٤	المنصور محمد ابن محمود.
١٢٨٤	المظفر محمود ابن محمد.
	خامسا: الأيوبيون في حمص
١١٦٩	المنصور شيركوه بن شاذى
١١٧٨	القاهر محمد ابن شيركوه.
١١٨٦	المجاهد شيركوه ابن محمد.
١٢٤٠	المنصور إبراهيم ابن شيركوه ابن محمد.
١٢٤٦-١٢٦٣	الأشرف موسى ابن إبراهيم.

ملحق رقم (٣)

الممالك

أولاً: دولة الممالك البحرية:

شجرة الدر

- ١٢٥٠ ١- أيبك (المعز عز الدين).
- ١٢٥٧ ٢- على بن أيبك (المنصور نور الدين).
- ١٢٥٩ ٣- قطز (المظفر سيف الدين).
- ١٢٦٠ ٤- بيبرس البندقدارى (الظاهر ركن الدين).
- ١٢٧٧ ٥- بركة خان (السعيد ناصر الدين).
- ١٢٧٩ ٦- سلامش (العادل بدر الدين).
- ١٢٧٩ ٧- قلاوون (المنصور سيف الدين).
- ١٢٩٠ ٨- خليل (الأشرف صلاح الدين).
- ١٢٩٤-١٢٩٣ ٩- محمد بن قلاوون (الناصر). الفترة الأولى.
- ١٣٠٨-١٢٩٨ الفترة الثانية
- ١٣٤١-١٣٠٩ الفترة الثالثة
- ١٢٩٤ ١٠- كتيغا (العادل زين الدين).
- ١٢٩٦ ١١- لاجين (المنصور حسام الدين).
- ١٣٠٨ ١٢- بيبرس الجاشنكير (المظفر ركن الدين).
- ١٣٤١ ١٣- أبو بكر ابن الناصر محمد. (المنصور سيف الدين).
- ١٣٤١ ١٤- كوجك ابن الناصر محمد (الأشرف علاء الدين).
- ١٣٤٢ ١٥- أحمد ابن الناصر محمد. (الناصر شهاب الدين).
- ١٣٤٢ ١٦- إسماعيل ابن الناصر محمد (الصالح عماد الدين).
- ١٣٤٥ ١٧- شعبان ابن الناصر محمد (الكامل سيف الدين).
- ١٣٤٦ ١٨- حاجي ابن الناصر محمد (المظفر زين الدين).
- ١٣٥١-١٣٤٧ ١٩- الحسن ابن الناصر محمد (الناصر). الفترة الأولى.
- ١٣٦١-١٣٥٤ الفترة الثانية.
- ١٣٥١ ٢٠- صالح ابن الناصر محمد (الصالح صلاح الدين).
- ١٣٦١ ٢١- محمد بن حاجي (المنصور صلاح الدين).
- ١٣٦٣ ٢٢- شعبان. (الأشرف ناصر الدين).
- ١٣٧٦ ٢٣- على ابن شعبان. (المنصور علاء الدين).
- ١٣٨٢-١٣٨١ ٢٤- حاجي. (الصالح صلاح الدين).
- ١٣٨٢ ثانياً: دولة الممالك البرجية (أو الشراكسة):
- ٢٥- برقوق (الظاهر سيف الدين).

١٤٠٥-١٣٩٨

١٤١٢-١٤٠٥

١٤٠٥

١٤١٢

١٤٢١

١٤٢١

١٤٢١

١٤٢٢

١٤٣٨

١٤٣٨

١٤٥٣

١٤٥٣

١٤٦٠

١٤٦٠

١٤٦٧

١٤٦٨

١٤٦٨

١٤٩٧-١٤٩٦

١٤٩٨-١٤٩٧

١٤٩٧

١٤٩٨

١٥٠٠

١٥٠١

١٥١٦

٢٦- فرج ابن برقوق (الناصر) الفترة الاولى.

الفترة الثانية

٢٧- عبد العزيز ابن برقوق (المنصور).

٢٨- شيخ الحمودي (المؤيد أبو النصر).

٢٩- أحمد ابن شيخ الحمودي (المظفر).

٣٠- ططر (الظاهر).

٣١- محمد ابن ططر (الصالح).

٣٢- برسباي (الاشرف سيف الدين).

٣٣- يوسف ابن برسباي (العزیز جمال الدين).

٣٤- جقمق (الظاهر سيف الدين).

٣٥- عثمان بن جقمق (المنصور فخر الدين).

٣٦- اينال العلاتي . (الاشرف سيف الدين).

٣٧- أحمد ابن اينال (المؤيد شهاب الدين).

٣٨- عَشَقْدَم (الظاهر سيف الدين).

٣٩- يلبي المؤيدي (الظاهر سيف الدين).

٤٠- ثريغا (الظاهر).

٤١- قايتباي (الاشرف سيف الدين).

٤٢- محمد ابن قايتباي (الناصر) الفترة الاولى

الفترة الثانية

٤٣- قانصوه (الظاهر).

٤٤- قانصوه الاشرفي (الظاهر).

٤٥- جنبلاط (الاشرف).

٤٦- طومان باي (العادل).

٤٧- طومان باي (الاشرف).

مراجع الكتاب

- (١) الكامل فى التاريخ .
- (٢) سيرة صلاح الدين .
- (٣) اطللس تاريخ الإسلام .
- (٤) الحروب الصليبية .
- (٥) اضمحلال العصور الوسطى .
- (٦) التاريخ الوسيط .
- (٧) معالم تاريخ الإنسانية .
- (٨) الحملة الصليبية الأولى .
- (٩) الهجمات الصليبية الغربية على العالم الإسلامى
- (١٠) ماهية الحروب الصليبية .
- (١١) ندوة التاريخ الإسلامى والوسيط «صليبية الأطلاق» .
- (١٢) الصليبيون فى الشرق .
- (١٣) تاريخ الأقطار العربية .
- (١٤) تاريخ ابن خلدون .
- (١٥) النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة .
- (١٦) بدائع الزهور فى وقائع الدهور .
- (١٧) السلوك فى معرفة دول الملوك .
- ابن الأثير
- ابن شداد .
- د . حسين مؤنس .
- د . على عبد الفتاح .
- يوهان هويزلجا .
- نورمان ف . كانتور .
- هـ . ج . . ويلز
- جوناثان ريلى سميث
- د . أحمد شلبى
- د . قاسم عبده قاسم
- عبدالفنى محمود عبدالمعاطى
- رابوروف
- كاوتسكى
- ابن تغرى بردى
- ابن لياس
- المقرئ يزى

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٣
الفصل الأول: نظرة شاملة على حال العالم قبل الحروب الصليبية	٧
(١) الغرب الأوروبي	٩
(٢) الامبراطورية البيزنطية	١٤
(٣) الدولة السلجوقية	١٥
(٤) المشرق العربي	١٦
الفصل الثاني: الحروب الصليبية	١٩
(١) الحملة الصليبية الأولى	٢١
(٢) الحملة الصليبية الثانية	٣٢
(٣) الحملة الصليبية الثالثة	٣٩
(٤) الحملة الصليبية الرابعة	٤٢٧
(٥) حملة الأتراك الصليبية	٤٤٧
(٦) الحملة الصليبية الخامسة	٤٥
(٧) الحملة الصليبية السادسة	٤٨
(٨) الحملة الصليبية السابعة	٥١
(٩) الحملة الصليبية الثامنة	٥٢
(١٠) حملة لويس التاسع على تونس	٥٤
الفصل الثالث: تصفية الوجود الصليبي في الشام والمشرق العربي	٥٥
الفصل الرابع: تصفية الوجود الصليبي في جزائر شرق البحر المتوسط	٥٩
خرائط	٦٤
ملاحق	٦٨
الفهرس	٧٤

مكتبة الازمستان
الطريق. أمام جامعة الهند
٢٥٧٨٢ : ت

To: www.al-mostafa.com